تعدد الأبعاد والجوانب

جمال حمدان

مكتبة مدبولى

شخصية مصر
و
تعدد الأبعاد والجوانب

د. جمال حمدان

شخصية مصر
و
تعدد الأبعاد والجوانب

الناشر مكتبة مدبولي - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

عقب صدور كتاب «شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان» ضمن سلسلة كتب الهلال، فى شهر يوليه ١٩٦٧، طلبت إحدى الهيئات العالمية الأجنبية من أخى العالم الراحل جمال حمدان أن يكتب كلمة عن هذا الكتاب وترجمة أحد فصوله. فاختار أخى الفصل السابع الذى تناول فيه تعدد الأبعاد والجوانب، ولكن هذه الترجمة لم تنشر فى ذلك الحين، وقد رأينا نشرها اليوم مع الأصل العربى لكى ينتفع بها الدارسون والباحثون الناطقون باللغة الإنجليزية فى شتى أنحاء العالم، تنفيذاً لرغبته التى أوصانى بها.

وقد تناول الدكتور جمال حمدان فى هذه الدراسة تأثير تعدد الأبعاد والجوانب على شخصية مصر، سواء من حيث الموضوع أو الموقع، وكيف أن أمة مصر هى أمة وسط، متعددة

الجوانب ومتعددة الأبعاد والآفاق، مما يثرى الشخصية الاقليمة والتاريخية ويبرز عبقرية المكان فيها.

وبدأ فى الفصل الأول بدراسة البعد الأسيوى لمصر، ثم تلاه فى الفصل الثانى بالكلام عن البعد الأفريقى، ثم البعد النيلى فى الفصل الثالث، وأخيراً البعد المتوسطى فى الفصل الرابع. ثم أتى بعد أن أنتهى من مناقشة هذه الأبعاد وتحليلها، على تفاعل هذه الأبعاد الأربعة، وخاصة البعدين الأسيوى والأفريقى فى شخصية مصر، وختم بحثه بإيراد مقارنات ونظائر جغرافية، وضرب بعض الأمثلة على وجود هذه المقارنات بين تركيا ومصر وبين المغرب ومصر.

وقد توسع الدكتور جمال حمدان فى هذه الدراسة عندما أصدر موسوعته الفذّة «شخصية مصر» [1]، وقد قمنا بإعدادها وإصدارها مؤخراً فى كتاب مستقل بعنوان «نحن وأبعادنا الأربعة» [2]

١- شخصية مصر، الجزء الرابع، الصفحات ٣٩٩ - ٤٧٩ ، القاهرة، ١٩٨٢
٢- صدر الكتاب فى القاهرة عن دار نشر مدبولى، نوفمبر ١٩٩٣

وتحقيقاً لرغبة الراحل العظيم الذى ترك هذه الترجمة بخط يده، ننشر اليوم هذه الدراسة باللغتين العربية والإنجليزية لتكون فى متناول يد كل الباحثين العاملين فى حقل الدراسات الجيوبولتيكية المتعلقة بمصرنا العزيزة التى وهبها جمال حمدان كل حياته، وكرس لها كل طاقاته، ومات وهو يفكر فيها، وفى شئونها وهمومها ومشاكلها.

والله ولى التوفيق

دكتور عبد الحميد صالح حمدان

دكتوراه التخصص فى التاريخ الإسلامى

ودكتوراه الدولة فى الآداب والعلوم

الإنسانية (جامعة باريس)

المقدمة

أبعادنا الأربعة

سواء من حيث الموضع أو الموقع [1]، تحتل مصر مكانا وسطا: وسطا بين خطوط الطول والعرض، وبين المناطق الطبيعية وأقاليم الإنتاج، وبين القارات والمحيطات، حتى بين الأجناس والسلالات والحضارات والثقافات. وليس معنى هذا أننا أمة نصف، ولكننا أمة وسط: أمة متعددة الجوانب متعددة الأبعاد الآفاق، مما يثرى الشخصية الأقليمية والتاريخية ويبرز عبقرية المكان فيها..

فى الموضع :

فإذا بدأنا بالموضع وجدنا أخص خصائصه أنه يمثل إحدى الحالات النادرة من «تراكب البيئات». لقد تمكنت الحضارة الحديثة ووسائل النقل بالجملة من أن تخلق أخيراً بيئات تركيبية منقولة تتواقع فى نقطة واحدة عن طريق الأحتكاك الحضارى[2].

١- أنظر شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان، كتاب الهلال، يوليه ١٩٦٧، الصفحات ٢٣٣- ٢٦٩.

2- E.D. Chapple; C.S. Coon Principles of Anthropology N.Y., 1947,P. 95

ولكن الطبيعة خلقت منذ البداية بيئة طبيعية تركيبية تراكبية فى مصر حين أوصلت النيل من منابعه وبخصائصه الموسمية من قلب أفريقيا إلى عتبة البحر المتوسط. فالبيئة المصرية، كتربتها، بيئة «منقولة»، من النوع الذى يعرف فى الجغرافيا البشرية بالبيئات المتداخلة intrusive أو الغريبة exoticأو الممدودة Projected فهى تشبه فى وضعها المورفولوچى ما يعرف فى جنوب شرق أسبانيا بالهويرتا Huerta (والكلمة تحريف لروضة العربية)أو الواحات الساحلية الفيضية التى تتباين بوضوح مع الوسط الأستبسى الفقير الذى يعرف بالفيجا Vega فالموضوع فى مصر ليس موضعياً فى أصله، وليس نبتا محليا، بل تراكبت فيه خطوط العرض المتباعدة جداً والمتفاوتة جداً.

ولو نحن عبرنا عن دخلها المائى بصيغة مطرية – وهى التى لا تكاد تعرف المطر محليا – أى لو حولنا ايرادها المائى إلى المكافىء المطرى rainfall equivalent لبلغ نحوا من ٨٠ بوصة فى السنة، أى قدر ما يصيب الغابة الأستوائية أو الموسمية فى هضبة

البحيرات أو الحبشة مثلاً! فكأنها بهذا وبكتلتها البشرية قد يصح أن تقع إلى جانب الايراوادى مثلا أكثر منها إلى جانب البحر الأحمر، وهى من الناحية العمرانية والمورفولوچية أشبه بعامة بشريحة من الصين منها بجاوة.

وهكذا أخذت مصر مائية الموسميات دون أن تأخذ منها رطوبتها الوائدة ومناخها القاسى، أخذت منها «صهاريج tanks» الهند فى صورة الاحواض، ولكنها زرعت فيها محاصيل المعتدلات، وأخذت موقع البحر المتوسط البارز وليس موقع الحبشة السحيق. أى أنها جمعت بين محاسن كل منهما دون أضداد أى منهما. وقد عبر البعض عن ذلك كله بقوله إنها جغرافية «مقطرة مرشحة» تلك التى ظفرت بها مصر من الطبيعة.

وقد ظلت مصر طويلا مزرعة شتوية تعتمد على مائية صيفية! فكانت تمارس حياتها الزراعية شتاء وتقضى الصيف فى «بيات - ماذا نقول؟ - صيفى»!.. كان «النيل الأحمر»، كما يعبر لابلاش يعطينا «مصر الخضراء»، بينما كان «النيل الأخضر»

يترك مصر «صحراء سوداء» نصف العام.. [1] ومع ذلك جمعت بين محاصيل البحر المتوسط المعتدلة والمحاصيل المدارية. على أن شخصيتها الزراعية الكامنة لم تكتمل وتتحقق إلا بعد الرى الدائم، فهنا أصبحت محاصيل تنتشر عادة بين عشرات من خطوط العرض ابتداء من المنطقة المعتدلة الباردة وحتى المنطقة المدارية الحارة - أصبحت تختزل جميعا فى الدرجات العشر التى تترامى عبرها مصر. فإلى جانب الحبوب والفواكه المعتدلة ودون المدارية التى تؤلف «المحاصيل الانتقالية» التى تميز العروض الوسطى، أصبحت تجمع - أو توشك - بين الكتان والقطن، والبنجر والقصب، بين المعتدلات والمداريات. والواقع أننا يمكن أن نقول إن زراعتنا الشتوية تجعلنا فى نطاق البحر المتوسط بينما تنقلنا زراعتنا الصيفية جنوباً إلى النطاق السودانى والموسمى.

ويلخص المقريزى موقع مصر بحسب نظرية العصور الوسطى

1- P.v. de la Blache. Principles (f Human Goeg Lond., 1926, p.408.

فى «الأقاليم السبعة» حين يقول «مصر متوسطة الدنيا قد سلمت من حر الأقاليم الأول والثانى، ومن برد الأقاليم السادس والسابع، ووقعت فى الأقاليم الثالث فطاب هواؤها وضعف حرها وخف بردها، وسلم أهلها من مشاتى الأهواز ومصايف عمان وصواعق تهامة ودماميل الجزيرة وجرب اليمن وطواعين الشام. وحمى خيبر».[1]

تعدد الأبعاد :

لكن تعدد الجوانب حقيقة أوضح فى الموقع. فمصر حلقة بين العالم المتوسطى وبين حوض النيل برمته، ومن الناحية البشرية والأجتماعية البحته كانت حضارة مصر العربية التى تزرى بحضارة أوروبا الوسيطة شمالا تنتكس أثناء مجاعات العصور الوسطى الرهيبة إلى ما يذكر بحضارة العالم الزنجى جنوبا بعجزه وتواكله ونميمته ورقة. أى أنها كانت تتأرجح إلى

١- الخطط ج١ ص٤٠

حد ما بين حضارة رأسها المتوسطى وحضارة جذورها النيلتية. ولكنها أكثر من ذلك كانت حلقة الوصل بين مشرقه والمغرب. ومعنى هذا أن مصر لها بعدان أساسيان هما البعد الأفريقى والبعد الأسيوى. وكل منهما ساهم فى تكوين شخصيتها وتحديد لونها بنسبة معينة. فالبعد الأفريقى أمدنا بالحياة - بالماء والسكان، ولكن البعد الأسيوى أمدنا بالحضارة - وبالثقافة والدين منذ العرب. وحتى فى العصر الحديث وفى الجانب السياسى تمثل البعدان فى حركات الوحدة السياسية التى دخلتها مصر: مع السودان أولاً ثم مع سوريا بعد ذلك.

هكذا تتحدد لنا أبعاد أربعة فى توجيه مصر: الأسيوى والأفريقى على مستوى القارات، والنيلى والمتوسطى على المستوى الأقليمى. غير أن من الواضح أن هذه الأبعاد تتداخل فى بعضها البعض غالباً كما يفعل النيلى والأفريقى. هذا فضلا عن أن الكل يتداخل مع الإطار العربى الكبير. بيد أن الإطار العربى ليس مجرد بعد توجيهى أو اشعاعى ولكنه خامة الجسم وكيان

جوهر فى ذاته، ولهذا فلن نعرض له هنا حتى نعود إليه فى نهاية البحث بدراسة مستقلة مستفيضة. وفيما عدا هذا، فإن كلا من تلك الأبعاد الأربعة كان يجذب مصر فى اتجاهه ويكون أو يلون شخصيتها بدرجات متفاوتة من عصر لآخر. ومن الأهمية بمكان أن نقيم كلا منها ومدى اسهامه فى الشخصية المصرية وتوازنات التفاعل المتطور بينها جميعا.

الفصل الأول

البعـــد الأسيـــوى

البعد الأسيوى

من بين البعدين القريبين، يذهب الثقل والخطر دائما وأساساً للبعد الأسيوى الذى يأتى مبكراً باستمرار، بينما يغلب أن يتأخر الافريقى زمنيا. فرغم أن مصر فى أفريقيا موقعا، فقد كانت أبدا فى آسيا وقعا، ففى علاقاتها الخارجية كانت مصر القديمة أسيوية أكثر منها – أو بقدر ما هى– أفريقية [1] والانحدار التاريخى والجاذبية الجغرافية فى مصر هى أساسا نحو الشمال الشرقى. وأن نظرة إلى الخريطة تكشف لنا حقيقة بسيطة لكنها دالة. فالنيل فى مصر لا يجرى فى منتصف الصحراء ولكنه يجنح بتحيز واضح نحو الشرق، قل تقريباً بنسبة الثلث – الثلثين. ولو كان النيل يجرى أكثر غربية لتغيرت بلا شك اتجاهات التاريخ، على الأقل فى جزئياتها.

وبعد هذا فإن الدلتا مفتوحة مكشوفة من الشرق والغرب، تؤدى تلقائيا إلى سيناء التى تحمل فى اقليم جفارها

1- W. Fitzgerald, Africa, 1950 p.418.

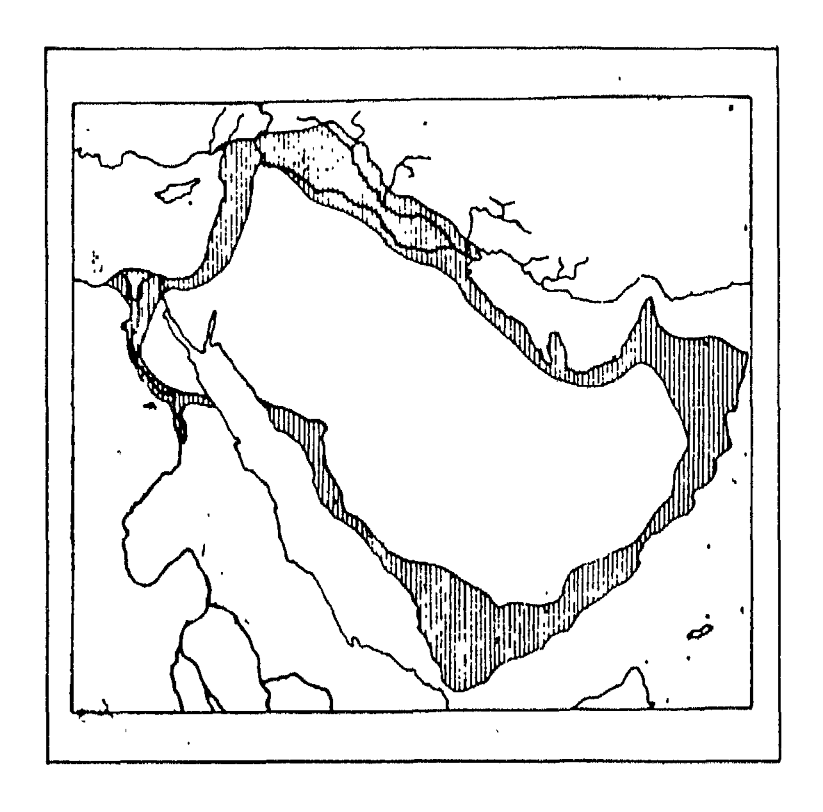
بالقطاعات الجنوبية الأقل أهمية. وإذا كان المصريون القدماء قد سموا هذا الطريق «طريق الآلهة» اعتقادا منهم بأنه طريق أجدادهم الأول [1]، فربما جاز لنا بالمقابلة أن نصف طريق سيناء «بطريق الغزاة» لكثرة ما عبرته الجيوش.

ومن محصلة هذه الضوابط الأولية - جنوح النيل إلى موقع شرقى، وطريقى سيناء والقصير - دخلت مصر فى علاقة حميمة مع غرب آسيا. والواقع أنه قبل أن يولد العالم العربى وحتى اليوم كانت مصر لهذا تكون قطاعا حيويا مما دعوناه فى مكان آخر [2] «الحلقة السعيدة» وهى تلك الحلقة من الأراضى الخصيبة أو الأكثر غنى التى تحيط بالجزيرة العربية. وكانت مصر تدخل فى هذه الدائرة عن طريق شريط سيناء الشمالى من ناحية ووادى الحمامات من ناحية أخرى. وكانت تلك دائرة كاملة تجرى فيها تيارات التاريخ والحياة بلا انقطاع كالدائرة الكهربية المغلقة. وكانت مصر قطبا أساسيا من أقطاب هذه الدائرة. ولهذا

١- أحمد فخرى، المرجع المذكور، ص ٨٣.
٢- دراسات فى العالم العربى ص ١٤.

كانت تقف على بوابة أفريقيا وتنظر إلى نافذة آسيا.

من هنا كان المحور الشمالى الشرقى هو بوابتها الرئيسية ومدخلها الأول، كان بجدارة «ترموبيل مصر» منه دخلت جميع الموجات التى اكتسحت البلاد فيما عدا أقلية نادرة أتت من الغرب كالليبيين فى مصر القديمة والفاطميين فى العصر الإسلامى، أو من الجنوب كالنوبيين والاثيويين فى العصر القديم. غير أن من المفيد أن نذكر أن طريق القصير يتضاءل كلية بجنب طريق سيناء، فلا نكاد نعرف موجة أو حملة أتت عن طريقه يقينا إلا حملة الهند فى القرن الماضى. على أنه من الناحية التجارية لم يعدم قدراً كبيراً من الأهمية حيث كان مخرجا ومدخلا أساسيا لتجارة المرور بين البحرين عن طريق الصعيد والوادى، لا سيما أن القطاع الشمالى من البحر الأحمر لم يكن مرغوباً فى ملاحته لأخطار العواصف والشعاب المرجانية كما كانت تتهدده أحيانا أخطار الشمالية كأيام الصليبيات، هذا فضلاً عن أنه كان طريق الحج التقليدى فى العصور الوسطى.



(شكل ١) «الحلقة السعيدة» فى المشرق العربى:
لاحظ موقع مصر كقطاع فى الدائرة

وتنعكس كل هذه العوامل على تاريخ موانىء جبهة هذا الطريق خاصة القصير.

وبغض النظر عن القيمة النسبية لكل من طريقى سيناء والقصير، فقد صبا أغلب نشاط مصر الخارجى فى الجبهة الاسيوية. فكانت كل الحركات الخارجة من مصر وكل معاركها التاريخية تتم على أرض أسيوية. وقد كان اطار النشاط المصرى فى أسيا لا يخرج تقليديا عن الهلال الخصيب حتى أقدام الاناضول ومشارف الفرات وتخوم العرب البتراء. وإذا كانت مصر لم تصل فعلياً فى مدها الأسيوى إلى قلب العراق فضلاً عن فارس بينما وصلت قوى مختلفة من كل منهما أكثر من مرة إلى مصر، فليس هذا لقصر ما فى نفس الحركة المصرية، بل إن العكس هو الصحيح، فقد كان لمصر بعد آخر برمته هو البعد الأفريقى، بينما لم تعرف العراق أو فارس أبعاد آخرى مماثلة.

ولكن هذا الزحف نحو الشرق Drang nach Osten اتسعت رقعته فى القرن التاسع عشر حتى شملت الاناضول وكادت

تشرف على استنبول مرة، كما توغلت فى نجد والحجاز حتى اليمن من الناحية الأخرى. وفى كثير من فترات التاريخ كانت ولاية مصر تشمل ضمناً جزءا قل أو كبر من الشام وايالاته، كما تمددت إلى غرب الجزيرة العربية أكثر من مرة.

ومن الناحية الدينية البحتة لم تنفصل مصر كذلك عن دائرة الحلقة السعيدة قط، سواء قبل الإسلام أو بعده. فمن الحقائق اللافتة للنظر أن مصر كانت دائماً طرفاً فى قصة التوحيد بفصولها الثلاثة. فمواطن الأديان التوحيدية فى فلسطين وسيناء والحجاز ترسم فيما بينها مثلثاً أو سهماً رأسه يشكل مماساً لمصر فى سيناء . فقد انصبت هذه الرسالات جميعاً فى مصر على التوالى، وإن كانت كل فرشة منها تطغى وتغطى على سابقتها حتى سادت آخراها فى النهاية. وإلى هذا، فان مصر لعبت فى مراحل الدعوة إلى ثلاثتها دوراً أو آخر، فكانت لموسى قاعدة ومنطلقاً، ولعيسى ملجأ وملاذا، بينما كانت مع النبى محمد هدية ومودة.

غير أن أهمية البُعد الأسيوى فى الشخصية المصرية – التى تنعكس حتى منذ فجر التاريخ فى العنصر الإسلامى المؤكد فى اللغة المصرية القديمة، الحامية أساساً – زادت واكتملت خاصة منذ العرب حين أخذت مصر الشخصية العربية كاملة فى اللغة والثقافة والدين، بل لم تلبث أن أصبحت بها قلب العالم العربى والعروبة وهمزة الوصل بين المشرق والمغرب، بين آسيا العربية وافريقا العربية. ومنذ العروبة يلاحظ أن كل الدماء القريبة أو البعيدة التى انصبت أو تسربت إلى مصر، جماعات أو أفراد، جاءت كلها تقريباً من الجبهة الأسيوية باستثناءت قليلة. فبجانب العرب، يصدق هذا على عناصر الأكراد والتركمان والغز والديلم ممن أتوا كمماليك الأيوبية والمملوكية، كما يصدق على الأتراك فيما بعد ومعهم الشراكسة ثم فى القرن الأخير الأرمن وغيرهم وفى نفس القرن اشتدت هجرة ودخول عرب الشام ولبنان وفلسطين إلى مصر.

أما فى الوقت الحاضر فلا جدال أن الثقل الأكبر من

السياسة القومية لمصر الثورة يتجه إلى الجبهة الآسيوية، عوداً فى الحقيقة على بدء قدم التاريخ. وقد أكدت قضية فلسطين هذا التوجيه وحتمته تماماً مثلما فعلت الحروب الصليبية فى العصور الوسطى ومنذ حرب فلسطين ثم منذ الثورة، خاضت جيوش مصر معاركها الأساسية على الجبهة الآسيوية بما فى ذلك اليمن. فمن الواضح إذن أن البعد الآسيوى هو البعد المحورى فى توجيه مصر الخارجى، وأنه أساساً علاقة أخذ وعطاء من طرفين، تمتاز بالاستمرار والاطراد دون ذبذبة أو تقطع.

الفصل الثاني

البعـــد الأفريقـى

البعد الأفريقى

كما يتداخل الكل مع الجزء والعام مع الخاص، يتداخل هذا البعد مع البعد النيلى .. حتى ليمكن أن نزعم أن القطاع الأكبر من بعدنا الأفريقى انما هو ببساطة بعدنا النيلى، يكمله من يمين قطاع ثانوى نسبياً على طول البحر الأحمر وشرق أفريقيا، ومن شمال قطاع أخطر يجمع بين المغرب العربى والصحراء الكبرى. ولهذا يحسن أن نتحدث عن البعد الأفريقى بإيجاز وتعميم قبل أن نركز على جوهره البعد النيلى.

وواضح أن أرض مصر جزء من جسم أفريقيا، أما السكان فمن النظريات ما بين المصريين القدماء والصوماليين [1]. غير اننا إذا قبلنا نظرية عصر الجفاف التى أعقبت العصور الحجرية القديمة. فلعلها لا تحتم بالضرورة أن يكون المصريون من أصل غير محلى أو إقليمى، وأيا ما كان هناك اتجاهاً متزايداً هذه

1- C.G. Seligman Races of Africa, H.U.L.

الأيام - ربما كرد فعل متطرف لمحاولات الأستعمار المتطرفة لتمزيق القارة - للبحث عن تلك الأصول فى مجال الأركيولوچيا الأفريقية والإنسان الأول. غير أن هذا الاتجاه تحف به مزالق علمية كثيرة ككل ما يتصل بالماضى السحيق، وقد يرتب نتائج ضخمة على فروض ونظريات تخمينية. والذين يفعلون ذلك ربما كانوا يفعلون أسوأ مما يفعل أصحاب الفرعونية، فهم لا يعودون فقط إلى الماضى البعيد المكتوب، ولكن إلى الماضى السحيق قبل المكتوب. وقبل التاريخ ولا نقول الإنسان العاقل!

وإنما حسبنا أن نقول ان مصر التى كانت طليعة ومهد الحضارة فى القارة، قد صدرت إليها كثيراً من انجازتها منذ فجر التاريخ. وخارج البعد النيلى، فلقد تأكد هذا مراراً على محور البحر الأحمر منذ رحلات بونت الدالة، كما يحتمل على محور الصحراء الكبرى حيث وجدت آدلة على المؤثرات الحضارية المادية والثقافية بين بعض قبائل نيچيريا وغرب أفريقيا وبين القبائل النيلوتية فى أعالى النيل[1].

---

١ - عبد العزيز كامل، دراسات فى أفريقيا المعاصرة - القاهرة، ١٩٦٣، ص ٧٢ - ٧٩

ولكن العلاقات على محور شمال أفريقيا جاءت من نوع آخر أدخل فى الوجود العربى الكبير. وهى والبعد النيلى بمثابة ذراعين طويلتين ضخمتين تنتهيان إلى مصر لتتصلا عن طريقها بالحلقة السعيدة فى المشرق العربى. فمنذ البداية دخلت مصر مع الليبين فى احتكاك بعيد المدى بالغارات والحملات، وبالتسرب والتوطن، سواء فى غرب الدلتا أو جبهة الفيوم والصعيد. بل وأسسوا كما رأينا احدى الأسرات فى تاريخ مصر.

كذلك فما أكثر ما امتد التوسع والنفوذ السياسى المصرى إلى برقة خاصة أيام البطالسة والعرب. وكانت مصر بوابة التعريب بالنسبة للمغرب كله، وتواترت العلاقات المتبادلة فى العصور الوسطى، فكان طريق الحج – الذى ترمز اليوم إليه العشرات من أضرحة ومقابر الشيوخ المغاربة على طول ساحلنا الشمالى الغربى ثم قلب الدلتا ابتداء من سيدى برانى إلى سيدى المرسى إلى السيد البدوى.... الخ – كان هذا الطريق رافداً سنوياً أو دائما يصب مؤثراتهم بهدوء فى مصر. وكان طريق

التحذير الساحلى الشهير بنيرانه[1] يؤكد هذه العلاقة، التى وصلت إلى قمتها فى الغزو الفاطمى لمصر. واليوم يمثل أولاد على بمريوط حلقة وصل بشرية بين مصر والمغرب الكبير.

من السهل اذن أن نرى أن البعد الأفريقى فى كيان مصر يتفق فى معظمه واستثناء هوامش ثانوية مع المجال العربى سواء فى ذلك فى دائرة النيل أو الصحراء أو المغرب. من هنا يبرز السؤال: أين وكيف تقع مصر بين العروبة والأفريقية؟ وما العلاقة بين الوحدة العربية والوحدة الأفريقية؟ وهنا تصر الاتجاهات الاستعمارية على ابعاد وعزل العرب – لا سيما مصر التى تلعب اليوم فى السياسة دوراً قيادياً فى أفريقيا مثلما لعبته قديماً فى الحضارة – عن القارة، وتزعم أن الصحراء الكبرى فاصل طبيعى كالمحيط يقسم القارة إلى قارتين، ويحدد ثنائية أساسية هى ثنائية العرب – الزنوج، ويجب أى وحدة أفريقيا.

والنظرية – التى تكاد تبدو كأنها الوجه الآخر لنظرية

١– رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار – القاهرة ، ١٩٥٥.

الأستعمار الأخرى عن «وحدة البحر المتوسط» - تنتهى إلى خلق تعارض مقصود بين فكرتى الوحدة العربية والوحدة الأفريقية. فهما - هكذا هى تصور - خطان متعامدان: إذا قلت بالوحدة الأفريقية شطرت الوحدة العربية، وأن أنت قلت بالوحدة العربية مزقت الوحدة الأفريقية. ومن ثم تبدو النظرية كلها سلاحاً ذا حدين بل متعدد الحدود، يمزق كل شئ وفى كل اتجاه سواء فى العروبة أو فى أفريقيا، وهكذا بالضبط هو الهدف الأساسى سياسياً...

تلك هى القضية كما يضعها الأستعمار، ولكنها فى الحقيقة وببساطة قضية مزيفة. فمن ناحية لم تكف المؤثرات العربية أو المصرية عن اختراق الصحراء منذ فجر التاريخ القديم. ومن المبالغة أن نتكلم عن الصحراء كمحيط رملى فى عصر الطيران. ومن ناحية أخرى - وهذا أساس كل خلط وخطأ - فليس المقصود بالوحدة الأفريقية إلا «وحدة عمل»، وحدة تضامن فى المجال الدولى سياسياً وأقتصادياً وحضارياً مواجهة

لضغوط الأستعمار المشتركة. أما الوحدة العربية فوحدة كيان ومصير. الأولى لا تستهدف الوحدة الدستورية، والثانية جوهرها الوحدة الدستورية والاندماج السياسى، أى أن الوحدتين من مستوى مختلف، وهو اختلاف فى النوع لا الدرجة، ومن ثم لا تعارض بينهما. ولهذا فليس على مصر جناح أن تولى وجهها شطر أفريقيا وبُعدها الأفريقى كما فعلت دائماً، وليس لها أن تنسى أنها بوابة القارة وحارسها فى الشمال الشرقى، ونقطة الارتكاز بالنسبة لها فى التضامن الأسيوى الافريقى. كل أولئك دون أن تضعف عروبتها فى أى معنى.

ومن هنا نرى أن ما طالب به البعض أخيراً من النص دستورياً على أن مصر جزء من أفريقيا يمثل ما ينص على أنها جزء من الأمة العربية، انما هو قياس مع الفارق وينبع من منظور خاطئ يضع الوحدة العربية على نفس مستوى الوحدة الافريقية. فأن ننص على عروبتنا فى الدستور، هو تعبير سياسى عن مضمون قومى، ومن ثم هو أمر فى موضعه السليم أما أننا جزء

من أفريقيا. فحقيقة جغرافية بديهية مجردة لا يستتبعها بالضرورة أى التزام سياسى أو قومى حتمى، ولذا فمكانها الطبيعى فى كتب الجغرافيا ولكنها جديرة بأن تبدو فى الدستور فضولاً وتزايداً لا محل له.

الفصل الثالث

البعــد النيلــى

البعد النيلى

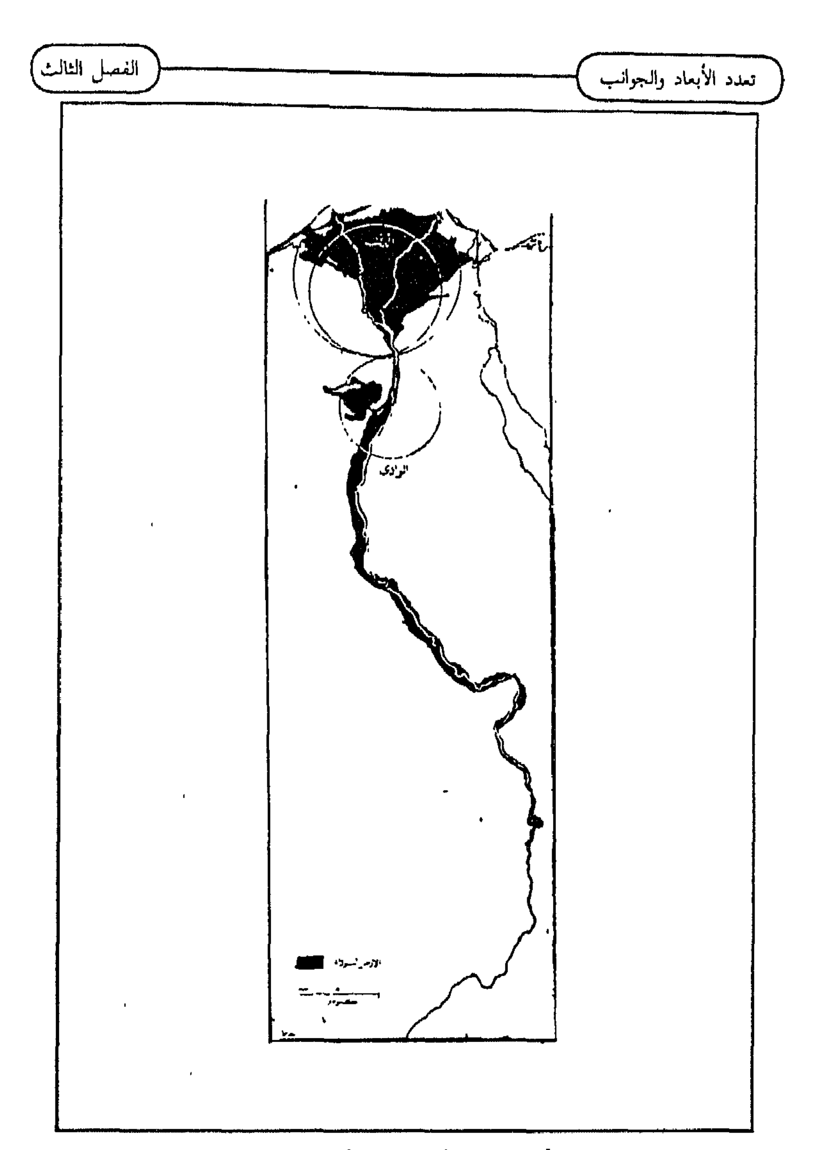
أما البعد النيلى فسيلاحظ ابتداء أن نمط الصعيد الخطى الطولى Linear ليس «اقتصادياً» من حيث العمران أو المواصلات أو الإنتاج لأن كل هذه المجالات إنما تخدم الحد الأدنى من السكان إذا اعتبرنا وحدة المسافة. ويكفى أن نعلم أن الاثنى عشر ألف كيلو متر مربع ونيفا التى تؤلف مساحة الصعيد وتمتد نحو ٨٠٠ كم من الشمال إلى الجنوب يمكن أن تستوعبها برمتها دائرة مكتنزة قطرها ١٢٥ كم. ان شكل جغرافية الوادى الاقتصادية قد لا يكون الأمثل للجغرافى الاقتصادى، ولكنه لنفس السبب مثالى للاستراتيجى ولأغراض الحضارة والتاريخ. فالصعيد الخطى هو فى الحقيقة الذى وسع رقعة مصر الكلية بأن أضاف إليها الرقعة الكبرى من غلافها الصحراوى. ولو كان الصعيد ملموماً كالدلتا لكانت رقعة مصر الكلية أصغر مما نعرف بكثير. وأهم من هذا أن الصعيد الخطى هو الذى أعطى لمصر عمقاً حضارياً فى أفريقيا - هو سهم مرسل نحو قلب القارة

حمل حضارة مصر وثقافتها، مخترقاً الصحراء فى مضاء ونفاذ يتحاشى بهما - بقدر الامكان الميكانيكى - الاحتكاك بحواجز الصحراء العنيدة. ولو كان الصعيد ملموماً كالدلتا لتغير بلا مراء تاريخ علاقة مصر بالقارة ولكانت أسيوية أكثر مما هى الأن ولأعطت ظهرها للقارة الأم بصورة أو بأخرى. وعلى العكس من هذا، لو أن نيل النوبة بثنيتة المسرفة فى الالتواء، مضى مستقيماً مباشراً لكان رباط أوثق. ومع ذلك كله فقد كانت الصحراء أبداً عائقاً خطيراً فى سبيل تعميق هذا العبد النيلى وتمديده سواء غرباً أو جنوباً، كما كانت جنادل النيل - التى يعدها البعض الحد الشمالى للمؤثرات الزنجية أو المتزنجة فى حوض النهر - عقبة أخرى فى طريق الشريان الوحيد إلى قلب القارة. ولهذا كانت حدود النفوذ المصرى لا تتعدى غالباً الشلال الثانى أو الثالث، ولو أن النفوذ الحضارى توغل كثيراً حتى أثيوبيا القديمة.

ويقدم حزين نظرية مناخية ثاقبة تفسر جزئياً ميكانيكية التوجيه الجنوبى النيلى لمصر القديمة كمكمل حينا أو كبديل حينا آخر للتوجيه الشمالى الأسيوى. فهو يقترح أن الذبذبات المناخية — التى لا ينبغى بالضرورة أن تكون بعيدة المدى طبيعياً — والتى عرفتها مناطق شمال المشرق العربى حتى العصور الكلاسيكية، كانت تسبب الاضطرابات والقلاقل فيها، وتطرد البدو فى غارات تشل مجرى التجارة بين مصر والبعد الأسيوى من ناحية كما تغريهم بغزو مصر فى شمالها خاصة من ناحية أخرى. فعندئذ تنسحب القوة المصرية إلى معقلها التقليدى فى الجنوب فى الصعيد لا سيما حول طيبة حيث تأخذ صبغة دينية تحفزها تلقائياً إلى أرض البخور والمر والعطور — بونت والصومال، فيسود التوجيه الجنوبى ويتبلور البعد النيلى الأفريقى[1].

على أن الاتجاه الجنوبى لمصر Drang nach Suden لم ينقطع طوال العصور القديمة وبعدها. فكانت تلك التخوم

1- S.A.S Huzayyin, Arabia & the Far East, Cairo 1942, PP. 30-1



(شكل ٢) المساحات الدائرية فى مصر

الجنوبية هى فيما يبدو أرض «النهس» عند المصريين القدماء وأقليم «المريس» فى العصر القبطى. وكلها يبدو تاريخياً كهوامش وأطراف على المنطقة الحضارية التى قلبها مصر، إليها تصل مؤثراتها وعناصرها ببطء نوعاً وبفارق زمنى، وفيها تخضرم بعد أن تكون قد تطورت أو ربما أندثرت فى القلب نفسه، وتبدو بذلك إلى حد ما كما لو كانت متحفاً جغرافياً حياً لتاريخ مصرى انطوى.

وقد كان هذا الاشعاع المصرى يتم - كقاعدة - على محاور ثلاثة كالحزمة: محور النيل أساساً، ثم أودية الصحراء الشرقية، وطرق قوافل الصحراء الغربية[1]. فمصر الفرعونية اتصلت بالنوبة منذ البداية وهى فيما يظن التى أعطتها اسمها نسبة إلى الذهب - نب - الذى اجتذبها هناك. وعن مصر أيضاً أخذت النوبة الحضارة وتأثرت لغتها باللغة المصرية ثم القبطية، بل يعتقد البعض - ربما مجرد تخمين - أن اللغة النوبية هى

١- عبد العزيز كامل، ص ٦٤ - ٦٧.

بقايا حفرية بشكل ما للمصرية القديمة. وقد توسعت الدولة الوسطى فى الحملات التأديبية على النوبة، حتى إذا كانت الدولة الحديثة كان قد تم تمصيرها جيداً وأسست العاصمة نباتا قرب الشلال الرابع. كذلك احتكت مصر باستمرار بالبجا فى مرتفعات البحر الأحمر واشتبكت معهم تأديبية أخضاعاً ورداً على غاراتهم المتكررة، كما اشتكبت معهم فى علاقات حضارية وثقافية فأعتطهم كثيراً من حضارتها إلى جانب ديانتها عبادة ايزيس.

وكما صدرت مصر عناصر حضارتها وعقيدتها الفرعونية إلى الجنوب، كررت دورها مع المسيحية ثم الإسلام. فرغم أن المسيحية اتخذت فى مصر شكلاً خاصاً بها حتى أصبحت القبطية فى معنى ما ديانة من الديانات التى توصف بأنها «جغرافية وعنصرية» معاً أى تحدد بأقليم معين، فانها لم تلبث أن امتدت جنوباً وبعيداً بين النوبة والبجا، بل توطنت المسيحية وتوطدت فى النوبة خاصة حيث نشأت مملكتان هامتان هما

دنقلة وعلوة. ومن الغريب أن المسيحية بعد أن هجرت فى مصر، اتخذت من النوبة معقلها على الطريق، فظلت تقاوم المد الإسلامى طويلاً حتى سقطت مملكتا النوبة فى القرن التاسع عشر.

وبالمثل تخلفت المسيحية فترة بين البجا، أما فى الحبشة فكانت نهاية – وقمة – الاشعاع الدينى لمصر، حيث ارتبطت كلية بالكنيسة المصرية، وحيث اعتصمت القبطية أساساً فى المعقل الأخير لتصبح الحبشة أكبر جزيرة قبطية فى أفريقيا بعد أن هاجرت تقريباً من الوطن الأم وتخلفت نوعاً ما على الطريق. وبهذه الهجرة الحقيقية أصبحنا نجد أن ملامح الماضى فى النواة المصرية هى ملامح الحاضر على أطراف منطقتها الحضارية أو أبعادها النيلية.

ومع الإسلام يتأكد دور مصر من جديد. فرغم أن من الثابت الآن أن تعريب السودان سبق إسلامه بكثير، وإن إسلامه عن طريق الجزيرة العربية والبحر الأحمر رأساً سبق إسلامه عن

طريق النيل، فقد لعبت مصر دوراً هاماً فى دفع المد الجديد وكقاعدة كبرى لتعريب السودان، فمنذ الفتح العربى لمصر اتجه زحف الإسلام إلى السودان، أما عقبة النوبة المسيحية فقد احتواها الإسلام وغزاها طويلاً وعميقاً بالانتشار الغشائى الفعال قبل أن يغزوها بالقوة الحربية. ثم انفتح الطريق كاملاً.

وإذا كنا نرى من هنا أن تعريب السودان فى العصور الوسطى لم يكن دور مصر وحدها، فقد ظل البعد النيلى كذلك منكمشاً على نفسه طويلاً حتى انطلق فجأة وأخيراً فى القرن التاسع عشر أيام الأمبراطورية المصرية - العربية - الإسلامية فى حوض النيل وشرق أفريقيا. وقد وصل هذ الزحف نحو الجنوب بسرعة إلى بحر العرب - الغزال ولكنه توقف أمام الاستوائية بسبب «السد» لأن النيل الذى كان ينبغى منطقياً أن يكون طريقاً متصلاً إلى قلب القارة وأعالى الحوض لا يلبث أن يتحول - لنفس الأسباب التى جعلته شرياناً هائلاً - إلى حاجز مصمت هو السد فاضطر المد الشمالى إلى الدوران حوله وتخطى

إلى ساحل البحر الأحمر فى أريتريا والصومال. ولكنه لم يكن قد بدأ بالكاد حتى ظهر له سد جديد سياسى لا طبيعى هذه المرة هو الاستعمار البريطانى فارتد إلى الأبد[1]. ومما له مغزاه أن السودان «العربى» إنما ينتهى عند «العرب» بالذات.

وهنا سيلاحظ من الناحية السياسية أن حدود الامبراطورية المصرية العربية الإسلامية قد تعدت حدود حوض النيل بالفعل، وأنها تقدمت على محورين النيل والبحر الأحمر، وتعبر بذلك أوضح تعبير عن تداخل البعدين النيلى والأفريقى لمصر. وكذلك تعرض هذا البعد لمحاولات البتر أو التقليم الأستعمارية. فحاول الأستعمار البريطانى أن «يقلب» الانحدار الطبيعى والتاريخى للحوض بعيداً عن مصر، فسعى إلى فصل جنوب السودان توجيهاً له إلى شرق أفريقيا والمحيط الهندى، وحاول تحريف وجة السودان الشمالى نحو البحرا لأحمر بدلاً من مصر والنيل. وأخيراً يلاحظ أن مصر بعد أن كانت قد تحولت إلى دولة

١- هو سكنز، ص ٧٩ وبعدها، محمود كامل، القانون الدولى العربى، بيروت، ١٩٦٥، ص ١٤٦ - ١٤٨.

«مختلطة» چيوبولتيكياً تتألف من النواة الكثيفة الأم ومن نطاق «واسع» تابع، عادات دولة كثيفة نووية كما بدأت.

وعند هذا الحد، يمكن أن نجمل خصائص البعد النيلى فى كيان مصر بصفة عامة. بُعد أصيل وجوهرى لا شك، لم يعرف الانقطاع بل لعله بعامة زاد عمقاً على العصور. غير أنه بعد هذا يغلب عليه الطابع الحضارى والسياسى أساساً، وهو من هذه الزاوية من طرف واحد بالضرورة: إيجاباً فى الشمال وسلباً فى الجنوب. ولكن هذا إنما يعنى النواحى البشرية، إما طبيعياً فهذا بُعد هيدرولوچى بالغ الخطورة بحسبانه أساس الوجود المصرى كله، وهو ما يمنحه تلك الأهمية السياسية الخاصة.

الفصل الرابع

البعـــد المتوسطـى

البعد المتوسطى

إن البحر المتوسط بعد من أبعاد التوجيه المصرى، قضية لا يمكن بداهة أن تكون خلافية. فالبلد إذ يطل عليه بجبهة بحرية مشرفة مترامية نوعاً، وإذ يمثل البحر أحد ضلوعه الأربعة، أو بالأصح الضلع الوحيد الحى الذى يتصل مباشرة بالمعمور المصرى باعتبار الضلع الغربى ميتا والجنوبى والشرقى شبه ذلك، نقول إن البلد بهذا لا يملك إلا أن يتفاعل مع البحر ويتعايش، غير أن السؤال هو إلى أى حد، وكيف يستقر البعد المتوسطى فى وجودنا؟

فالبعض من مثقفينا يود أو ود يوماً أن يجعلنا جزءا من حضارة وعالم يتصورونه هو البحر المتوسط. غير ان هذا الاتجاه ادنى فى الحقيقة أن يكون «رجعة» تاريخية إلى نظرية سادت وروج لها كثيرون فى الغرب، ولكنها حتى فى ذلك الغرب أصبحت اليوم بالية أو شبه ذلك. والإشارة هنا بطبيعة الحال إلى

نظرية «وحدة البحر المتوسط» الكلاسيكية التى يفترض أن الاستعمار الإغريقى ثم الرومانى حققاها بالقوة بين شاطئى البحر الشمالى والجنوبى حين كان شمال أفريقيا من جبل طارق إلى السويس بل إلى الاسكندرية خاضعاً لهما. ولكن من الواضح أن تلك كانت وحدة قهرية مفروضة من طرف واحد، وسلبية من الطرف الآخر، ولا يمكن أن تحسم علاقة.

كذلك تكاد النظرية أن تنتهى منطقياً إلى تصور «قارة وسطى» – أو شبه قارة بين القارات الثلاث تتحلق حول البحر، أو على الأقل تفصل أفريقيا شمال الصحراء عن بقية القارة. ومن الناحية الأخرى، فقد تلقف النظرية بعض من الكتاب الاستعماريين فى عصرنا هذا وعمل على بعثها والدعوة إليها لأهداف سياسية بعيدة وهى توجيه المنطقة، سواء مصر أو غير مصر من دول البحر العربية، توجيهاً أوروبياً يجرها إلى عجلتها السياسة، أو على الأقل حتى تتطلع إلى أوروبا كقبلة حضارية، وزعموا فى هذا الصدد أن «أوروبا تبدأ عند الصحراء»[1].

1- Fitzgerald, Africa.

لكن الواقع أن هذه النظرية المبتسرة يمكن أن تجعل من جنوب أوروبا ملحقاً لأفريقيا، وليس العكس بالضرورة. فإذا كانت الصحراء فاصلاً، فالألب فاصل كذلك. وإذا قيل ان «اوروبا تبدأ عند الصحراء»، فقد قيل بالمقابل «عند البرانس تبدأ أفريقيا» [١]. وإذا كان الساحل الأوروبى قد طغى سياسياً على الافريقى، فقد طغى الثانى على الأول قروناً وقروناً. كذلك فإن توسع المعمور وآفاقه منذ العصور القديمة خطوة خطوة، أبرز أوروبا كاملة مثلما كشف عن طريق أفريقيا كاملة فى النهاية، وعاد كل من شاطئ البحر المتوسط يرتبط - والإنسان حيوان برى أولاً - بظهيره القارى أساساً. وفى النتيجة فتلك النظرية لا يمكن أن تسلخ شمال أفريقيا عن أفريقيتها أكثر مما تسلخ جنوب أوروبا عن أوروبيتها.

أما حقيقة العلاقة داخل البحر المتوسط، فنمو وتطور تاريخى مر فى أدوار متعاقبة مرتبطة وثيقاً باستراتيجية العلائق

1- W.Z. Ripley, Races of Europe 1900, P. 272

المكانية الكبرى فى العالم القديم. فقديماً كما رأينا لم تكن دائرة المعمور الفعال لتزيد بالتقريب عن الشرق القديم وحوض البحر المتوسط، أما أوروبا شمال الألب وأفريقيا جنوب الصحراء فكانتا إما ضباباً وبرابرة وإما مجاهيل وبدائيين. فكان طبيعياً جداً أن يستقطب البحر ذلك العالم لا سيما وهو يتوسطه كما يدل الاسم. كان قبلة أو بؤرة مشتركة للجميع بما فيهم مصر. ومن هنا علاقاتنا الفرعونية الحضارية والتجارية بكريت المينوية ثم باليونان وروما الكلاسيكيتين عدا الشام وقبرص ... إلخ.

أما فى العصور الإسلامية فقد أصبح البحر المتوسط بعداً حقيقياً وخطيراً فى كياننا حيث كان من البحر ومصر مواقع خطى وحلقات حتمية فى طريق تجارة المرور العالمية. فالتحمت مصر بالبحر، ولكن بالذات خاصرته الوسطى، وكانت الاسكندرية ودمياط مع البندقية وجنوة وبيزا كالمدن المترابطة على البعد، وامتد بينها جسر بحرى بمعنى الكلمة. فكانت الاسكندرية والقاهرة موطناً دائماً، خاصة أيام المملوكية، لمستعمرة نشطة

متجددة من تجار المدن الإيطالية[1]. وبالمثل كانت علاقاتنا الكثيفة مع الشام تتم بالبحر أكثر منها بالبر. حتى الأخطار الخارجية جاءتنا على البحر، فأكدت الصليبيات بعدنا المتوسطى وإن يكن عسكريا.

وإذا كان العصر العثمانى قد شهد هجرة تجارة المرور العالمية، فإن توجهينا المتوسطى لم ينقطع تماما، وإنما انتقلت البؤرة من خاصرة البحر إلى حوضه الشرقى أو اللفانت بمعناه الواسع. وحتى مع الخاصرة لم يعدم الأمر أن حلت التجارة المحلية محل العالمية، ولو أنها كالجدول بعد نهر. والواقع أن العثمانية ربطتنا مع اللفانت ومع الأناضول أكثر مما نتصور عادة، فقد اشتد الاتصال بعاصمة الإسلام «اسلامبول» وسواحل البلقان فى اليونان وألبانيا ... إلخ. وانتقل كثير من مهاجرى هذه المناطق الطاردة إلينا، أو جنودها، وأقاموا وانصهروا ابتداء من الانكشارية حتى أرناؤوط وألبان محمد على ... إلخ، وبقيت

1- Clerget, Le Cairo, t. I I.

أسماؤهم المعربة تكشف أصولهم أحياناً.

[وقد يمكن أن نذكر هنا - عابرين - بعض مثل هذه الأسماء، التى تستخدم على الطريقة التركية اللام فى النسبة، والتى ما زالت تنتشر بيننا. فثمة الدرمللى (من مدينة دراما فى مقدونيا) (والسلانكلى) (سلانيك)، الجريدلى أو الجريتلى (كريت)، الاسلامبولى (استانبول)، المستيرى (موناستير فى البلقان)، الأزميرلى (أزمير)، هذا عدا قبائل الموراليا (من المورة) فى الشرقية الآن. وهذا - بالمناسبة - يذكر بمجموعة مماثلة من الأسماء المشتقة من جبهة الالتحام بين الاناضول والشام: كالعنتبلى (من عينتاب)، المرعشلى (مرعش)، المردنلى (ماردين)، أورفلى (أورفا)، الخربوطلى (خربوط)، البابلى (الباب قرب حلب) وانلى (بحيرة وان)، وهكذا ... إلخ].

هذا ومع محمد على والتغريب والأوروبة، استمر ارتباطنا بشرق الحوض، ولكن أضيف إليه غربه خاصة فرنسا وإيطاليا،

إلى أن انقرضت بالتدريج العلاقة مع شرق الحوض. ثم جاءت قناة السويس فأعادت تأكيد البعد المتوسطى فى كيان مصر. ولو أننا نكون أقرب إلى الحقيقة إذا قلنا حققت عالمية مصر. التى لم يعد البحرالمتوسط إلا حلقة فى سلسلتها.

تلك هى دورات المد والجزر فى بعدنا المتوسطى، ومنها نرى أن بوصلة مصرالجغرافية كانت تعكس – ولم تملك إلا أن تعكس – نبض البحر وحوضه، فكانت ذبذباته تنتقل كالموجات ليتردد صداها محلياً. ولعل أبرز ما كان ذلك فى المدن العواصم وموانئ الساحل، فكانت أقدارها ومصائرها وأجرامها تتحدد بتلك الذبذبات والاشعاعات. فابان الكلاسيكية خلقت الاسكندرية من لا شئ لتصبح قلب العالم الهللينى البطلمى وذلك بموقعها المناسب لأغراض الاستعمار البحرى على جبهة الالتحام بين الظهير المصرى (الهنترلاند) والنظير اليونانى (الفورلاند). غير ان هذا كان يتركها من وجهة الظهير اشبه بمدينة غريبة أجنبية لصقت بسيف البحر المصرى كما رأينا أكثر منها نبتاً انبثاقاً

طبيعياً.

أما فى العصور الوسطى ومع علاقات البندقية وجنوه فكانت لرشيد أهمية الطريق، حتى إذا تحول التوكيد إلى شرق البحر كانت الصدارة لدمياط وتنيس حيث لا تزال الأولى تحتفظ باليه تلك العلاقة الشامية فى وظائفها المعاصرة. وقد ورث محمد على هذا الوضع، ولكنه فى اندفاعه نحو الغرب عاد أولاً إلى رشيد إلا أن حاجته إلى نافذة حقيقية على أوروبا - كحاجة شبيهة الروسيا بطرس الأكبر - أدت به إلى إعادة خلق الاسكندرية مثلما خلق هذا سان بطرسبرج. ورغم طفرة الاسكندرية ودورها فى تجارتنا وعلاقاتنا الخارجية، فقد جاء الطيران ليقلل نوعاً من دور البحر ودورها النسبى ولينقل الثقل المطلق إلى القاهرة الداخلية [1].

من هذا كله تتضح أبعاد الموقف. فلا جدال أن البحر

1- Clerget, t. I; hamdan, Studies in Egyptation Urbanism PP. 22-3.

المتوسط بعُد، وبعُد هام، فى توجيهنا الجغرافى. فهو نافذة لمصر على الشمال، وضابط إيقاع لنبضها الحضارى والمادى. غير أن من الواضح أنه توجيه متقطع يشتد حينا ويضعف حينا، أى أنه مذبذب بين شد وجذب ثم ان دور مصر فيه استقبال أكثر منه إرسال، وإن كانت العلاقة عكسية فى التاريخ القديم، كما أن دوره هو فى كيان مصر ربما تضاءل على مر التاريخ بإطراد، وذلك لأن دور البحر المتوسط ككل قد قل نسيباً مع اتساع العالم.

أما ما نرى من خطورة علاقاتنا بأوروبا المعاصرة عن طريقة فهى لا تجعل منه إلا محطة طريق أكثر منها محطة وصول. فرغم أن الجزء الأكبر من تجارتنا الخارجية وعلاقاتنا الحضارية تعبر البحر المتوسط اليوم، فإن نصيب دولة منها محدودة إلى حد بعيد، ومعروف كقاعدة عامة فى التجارة الدولية إن العلاقات التبادلية بين كل دول الحوض ضعيفة بصورة ملحوظة لتشابه الإنتاج فيه [1].

1- Siegfried, Mediterranean, P.179

وبعامة فبعدنا المتوسطى حضارى أكثر منه طبيعياً، واقتصادى أكثر منه بشرياً. وهو فى النهاية وعلى خطورته وأهميته بعد تكميلى لا يرقى بالقطع إلى مستوى البعد الأسيوى أو العربى الذى هو أسبق وأثبت. وعلى آية حال، فلعلنا لا نغالى إذا قلنا أن دور البحر المتوسط فى مصر أقل منه فى معظم بلاد الحوض، ويكفى فى هذا الصدد أن نقارن بالشام أو بالمغرب فضلاً عن أشباه الجزر الأوروبية الثلاث.

وخلف هذا التحديد والحدود ترقد الجغرافيا. فأولاً، الحوض كله تطوقه وتغلفه حلقة جبلية متصلة تقطع الساحل الشريطى المختنق عن الداخل مما يجعل الأول بيئة طاردة تقذف بالسكان إلى البحر كمجتمعات أمفيبية حقاً – وذلك بأستثناء مصر. فهنا، وهنا فقط، تنكسر الحلقة وينفسح السهل الساحلى وينفتح إلى وادى النيل الضخم . فعوامل الطرد فى البر لا توجد، بل له على العكس كل الجاذبية. ومن ثم كان نداء النهر أقوى بكثير من نداء البحر.

ثانيـاً، نجـد أن كل وحـدات الحـوض تطل على البـحـر بجـبـهـة بحـرية مستطيلة ممدودة كالمغرب والشام مثلاً، ولكن مصر - كفرنسا فى هذا الصدد - تطل عليه عموديا أو رأسياً. فالنيل - كالرون - يتعامد على البحر فى نقطة تماس أكثر منه بجبهة تواز، لا سيما أن قطاعاً كبيراً من قاعدة الدلتا بحيرات ومستنقعات تفصل عن البحر. كذلك ولذلك فإن مصر - كفرنسا - لها علاقتها بالبحر ولكنها ليست العلاقة الوحيدة فى كيانها، فكما أن فرنسا دولة بحرين، فكذلك مصر، وكما أن لفرنسا قاعدتها الأرضية الضخمة خارج الحوض ولها أبعادها فى غرب أوروبا الاطلسية ومشارف وسط أوروبا، فكذلك لمصر أبعاد أكثر أهمية فى آسيا وأفريقيا.

وأخيراً، يلاحظ أن مصر هى أبعد وحدات الحوض عن سواحله المقابلة الهامة، كما أنها مناخياً الوحيدة فى الحوض التى لا تتبع أساساً مناخ البحر المتوسط. ولعلنا أن أردنا أن نضع دور البحر المتوسط فى ميزان قيمنا الاقليمية، أن نقترب من

الحقيقة أو أن نقربها إذا قلنا أنه أقوى بالتأكيد من دور البلطيق، فى توجيه الروسيا مثلاً، وأشبه بالتقريب بدور البحر المتوسط فى توجيه فرنسا.

الفصل الخامس

التفاعل بين أبعاد مصر الأربعة

التفاعل بين
أبعاد مصر الأربعة

تعدد لا انفصام :

كيف تفاعلت أبعاد مصر الأربعة، خاصة البعدين الأسيوى والأفريقى، فى شخصية مصر؟

من الخطأ أن نتصور العلاقة بين البعدين الأفريقى والأسيوى لمصر التاريخية أو المعاصرة على النحو الذى يحاول البعض أن يصور به العلاقة بين البعدين الأسيوى والأوروبى للروسيا القيصرية مثلاً. صحيح أن مصر هى أكثر أجزاء أفريقيا أسيوية وأقلها أفريقية، بمثل ما أن الروسيا كانت أكثر أجزاء أوروبا أسيوية و أقلها أوروبية، ولكن «ازدواج الشخصية» الذى ينسب إلى الروسيا لايصدق على مصر. فقد كانت الروسيا تتجه بكليتها إلى جانبها الأسيوى حين كانت تلقى رفضاً أو هزيمة أو

صـــداً فى أوروبا والعكس[1]. ولكن الابعاد الأفريقية والأسيوية بالنسبة لمصر ليست مناورة أو تكتيكاً سياسياً بل هى عناصر أصيلة فى كيانها الحضارى والتاريخى. وليس صحيحاً مطلقاً أن مصر فى السنوات الأخيرة لم تتجه وجهتها الأفريقية القوية بوضوح إلا بعد أن لاقت المتاعب فى المشرق العربى وحدثت الردة الانفصالية فى سوريا.

1- G.B. Cressey, Asia's Land & Peoples, 1952.

الفصل السادس

بعض المقارنات الجغرافية

بعض المقارنات الجغرافية

بين تركيا ومصر مشابهات على السطح قد تغرى بالمقارنة فتركيا جسر بين آسيا وأوروبا بمثل ما أن مصر جسر بين آسيا وأفريقيا. بل إن الجسم الأكبر فى كل منهما يقع فى قارة، بينما لا يقع فى القارة الأخرى إلا قطاع صغير: سيناء وتراقيا على الترتيب، وفى كلا الحالين انما يفصل بنهما ممر مائى عالمى خطير. أضف إلى ذلك التناظر القريب فى حجم السكان. ولقد تمددت تركيا فى أوروبا حتى ڤيينا كما وصلت مصر إلى البحيرات فى أفريقيا، واندفعت كل منهما فى آسيا من الناحية الأخرى. ولكن كل هذا تشابه مضلل لأنه سطحى، وسطحى لأنه جزئى فربما ليس أكثر من تركيا نقيضاً تاريخياً وحضارياً لمصر من الاستبس كقوة «شيطانية» مترحلة، واتخذت لنفسها من الاناضول وطناً بالتبنى. وبلا حضارة هى، بل كانت طفيلية حضارية خلاسية استعارت حتى كتابتها من العرب. ولكن أهم من ذلك أنها تمثل قمة الضياع الحضارى والجغرافى، غيرت

جلدها وكيانها أكثر من مرة: الشكل العربى استعارته ثم بدلته بالشكل اللاتينى والمظهر الحضارى الأسيوى نبذته وادعت الوجهة الأوروبية. أنها بين الدول بلا تحامل الدولة التى تذكر بالغراب يقلد مشية الطاووس. وهى فى كل أولئك النقيض المباشر لمصر ذات التاريخ العريق والأصالة الذاتية والحضارة الانبثاقية ... إلخ.

بعد هذا ربما انصرف الذهن لثالث إلى بريطانيا بموقفها بين أوروبا والكومنولث: فهى موقعاً جزيرة - أرخبيل - على ضلوع أوروبا بمثل ما أن مصر جزيرة صحراوية على مشارف أفريقيا. وكل منهما أمتاز بقدر ما من عزلة خفيفة، ثم ان امتدادت بريطانيا تقع خارج القارة إلى الكنومولث كما أن مصر تتعدى أفريقيتها إلى آفاق العالم العربى. ولسنا نريد بعد هذا أن نتتبع المقابلة إلى عنصر الاستمرارية والمحافظة الذى عرفته كل منهما ولا إلى أن كل منهما أكثف وحدات قارته سكاناً وأقدمها سياسياً وكانت له الصدارة فيها لفترة أو أخرى. ولكن

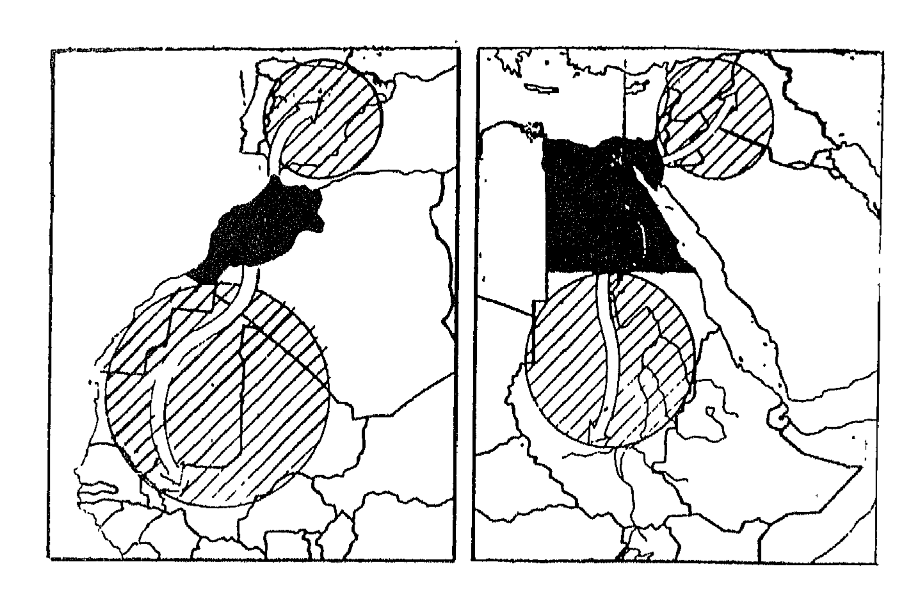
الشئ الهام أن حيرة بريطانيا وتذبذبها بين القارة والكومنولث (غير المنظور) لا مثيل لها فى حالة مصر التى لا تجد عارضاً أو انفصالاً بين بعديها الحيويين.

ولعل أقرب تشبيه إلى ثنائية الأبعاد المصرية هو المثل المراكشى. فكل من مصر والمغرب الأقصى (مراكش) يتناظر فى موقع الركن والزاوية فى أفريقيا ومن ثم فى دور المحيط وقاعدة الأحتشاد والتوزيع، فكان لكل مهما توجيه جغرافى مزدوج عبر التاريخ مصر شمالاً إلى الشام وآسيا وجنوباً إلى السودان وحوض النيل وشرق أفريقيا، ومراكش شمالاً إلى أسبانيا وجنوباً إلى «شنقيط» (موريتنانيا) وغرب أفريقى. ولكن البعد الشمالى الأوروبى لمراكش، بعد أن كان «المغرب الأوروبى» بكل معنى، لم يلبث أن بتر تماماً، بعكس نظيره المصرى. وقد كان هذا مما نقل مركز الثقل إلى البعد الجنوبى نهائياً فى حالة مراكش، بنما ظل نظيره المصرى مهملاً أو ضعيفاً.

وفيما عدا النيل، فموريتانيا بالنسبة للمغرب هى

كالسودان بالنسبة لمصر. بل أن تمسية السودان فى حوض النيل تكرر تمسية مماثلة فى المغرب حيث مازال السكان – بحسب الأصل – ما بين «بيضان وسودان». وكما كانت مصر (الواحة الصحراوية) هى القاعدة البشرية التى بدأ منها تعريب السودان، كانت مراكش (الواحة الساحلية المتوسطية) هى القاعدة البشرية «للمرابطين» فى إسلام وتعريب موريتانيا حتى السنغال– ومعروف أن كلمة سنغال هي تحريف فرنسى لاسم الصفة من صنهاجة كبرى القبائل البربرية المستعربة فى العصور الوسطى والتى شاركت فى الزحف جنوباً. وكما كانت مصر رائدة النيل، كانت مراكش سيدة غرب الصحراء الكبرى بلا جدال.

والخلاصة أن دور مصر الثنائى فى آسيا وأفريقيا أشبه ما يكون بدور المغرب الثنائى فى أوروبا وأفريقيا. وفى كلا الحالين كانت هذه الثنائية أصلية صحية فى كيان الشخصية الأقليمية وليست «انفصاماً» مرضياً نتيجة للمضاربات الانتهازية السياسية كما عرفت بلاد أخرى فى الشرق والغرب.



«شكل ٣» البعدان الأسيوى والأفريقى لمصر، ومقارنة مع المغرب

المحتويات

الصفحة

الصفحة

تم الجمع التصويرى والإخراج بشركة إى.إم جرافيك القاهرة تليفون ٣٩١١٩٥٠٦

رقم الإيداع ٢٨٩٠ / ٩٤
I.S.B.N 977 - 208 - 128 - 8



Figure No. 3

The Asiatic and African dimensions of Egypt, and a comparison with Morocco

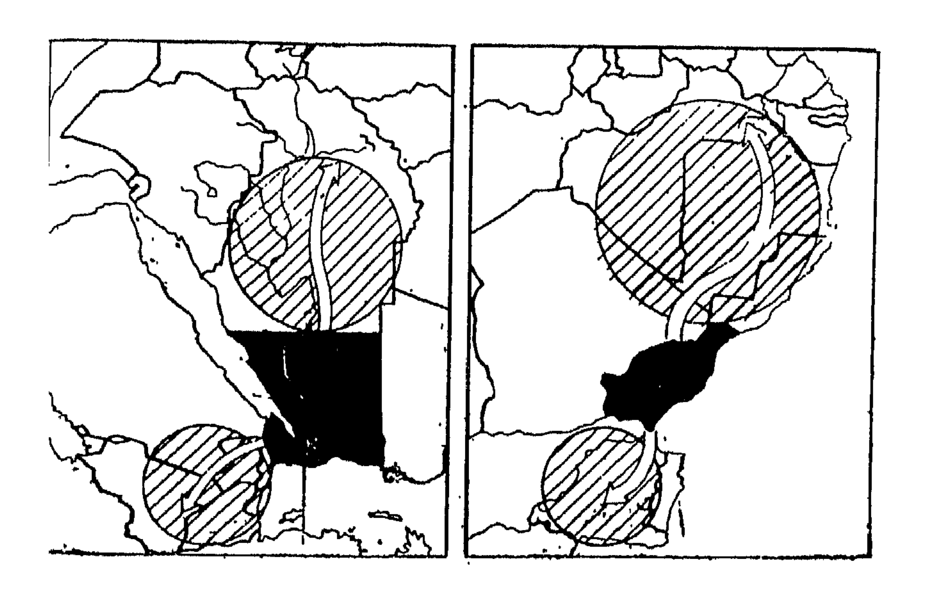


Figure No. 2

Circular areas in Egypt

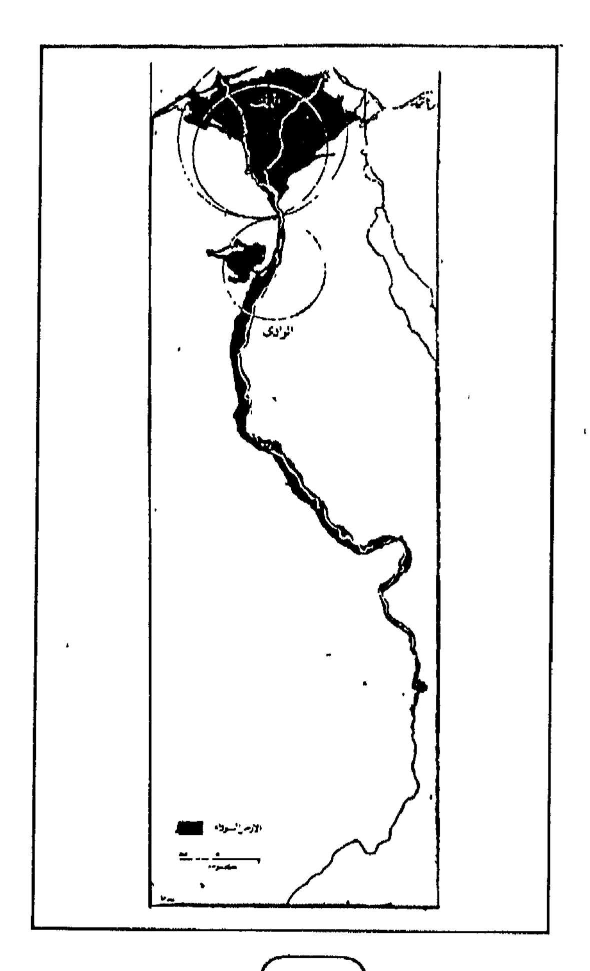
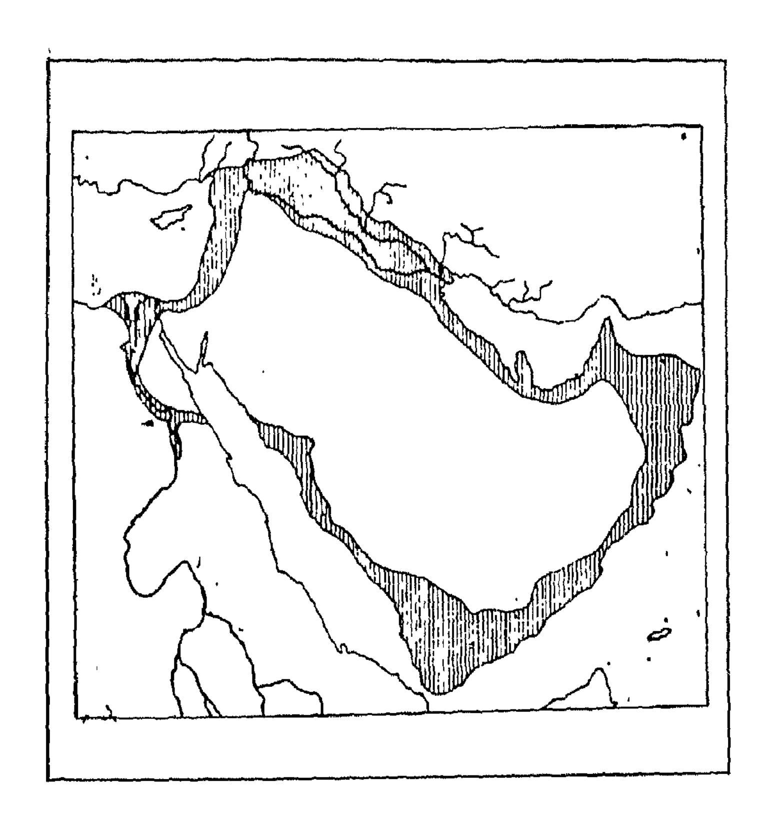


Figure No. 1

'Circulus Felix' in the Maghreb



the Maghreb where the populations of Mauritania are still ethnically divided between the Sudan (i.e., blacks) and the Beidan (i.e., whites). Again, just as Egypt, the desert oasis, was the human base from which the Sudan was mainly Arabised, Morocco, another coastal Mediterranean island, provided the Marabuts with the necessary base for the Islamisation and Arabisation of Mauritania up to the Senegal - Senegal itself is a French corruption of Senhaga, the leading Arabised Berber tribe of the Middle Age which actively participated in the march southward. Like Egypt in the Nile basin, Morocco was for long the undoubted mistress of the western Sahara.

their dual role and orientations. So just as Egypt dealt incessantly with Syria and Asia in the north and with Sudan, Nile basis and East Africa in the south, Morocco was deeply involved politically and culturally in Spain to the north and in Shinkit (Mauritania) and West Africa to the south. However, the northern dimension of Morocco's, after having for long been a virtual 'European Maghreb', was ultimately truncated for ever. This shifted the centre of gravity of Morocco's intersts southward where it concentrated her activities to a greater degree than did Egypt in its southern reaches.

Apart from the Nile, Mauritania is to Morocco what the Sudan is to Egypt. Indeed, the appellation of Sudan in the Nile basin repeats a similar one in

has distant extensions outside the Continent. A certain element of historic continuity and conservaation has traditionally been common to both. Both too, are about the most densely populated and politically the most ancient countries in their respective continents. Both led their respective continents and monopolised power in them for a longer or shorter period. On the other hand, Britain's dilemma, now especially acutely felt, between the Continent and the overseas Commonwealth is alien to Egypt which finds no antagonism or physical separation between its two vital dimensions.

Perhaps a nearer parallel to Egypt is the Moroccan example. Both are symmetrical in their corner-stone positions in northern Africa, and hence in

ably suffering from cultural frustration, it adopted the Arab script, only to drop it for the Latin when she completely changed spots from Asia to Europe. Now, nothing could be further from the age-old, self-emergent and enduring culture of Egypt with its earth-bound sedentary population.

Next one might conceive of Britain for more plausible analogue. It is an island, an archipelago, on the flanks of Europe, much the same as Egypt is a desert island on the outskirts of Africa. Both are characterised by a modicum of natural isolation and insulation, and actually experienced at one time or another a so-called 'reclusion period'. Just as Egypt transcends its African position to the wider horizon of the Arab World, so in the Commonwealth Britain

separates the two cycles. To this may added the striking parallelism in size of population (+_33 million each). Just as Turkey once expanded in Europe right up to the walls of Vienna, so did Egypt up to the lakes in Africa. On the opposite side, both made extensive penetrations into Asia. Yet despite all these external parallels, few countries could be as in wardly dissimilar as Egypt and Turkey (not to say they are culturally and historically antithetic). The one has no history ('sans histoire'), indeed no geographical roots even, since it was uprooted from the Asiatic steppe as a nomadic mushroom power - Anatolia is a homeland only by adoption. Again it had no civilization of its own and is considered by some to have begun as a cultural parasite. Presum-

It is no more correct either that in the past she rarely paid attention to Nubia, Sudan, Ethiopia and the Nile until and unless she faced political or military setbacks in the north in Syria or West Asia. Nor is it any more true that its southward drive synchronised with its phases of decline and debility or was necessarily a retrograde step.

Turkey, to cite another example, reveals certain similarities to Egypt which may tempt comparison. Turkey is a bridge between Asia and Europe, just as Egypt is between Asia and Africa. Indeed, the main body in both cases falls into one continent, while only a small sector extends across the other-Sinai and Thrace respectively. In both cases, it is a waterway of the greatest international interest that

True too, Egypt is the most Asiatic, and among the least African, of Africa in much the same way as Russia is the most Asiatic, and the least Europe. Nevertheless, the dual character that is sometimes described to Russia does not hold good for Egypt. Russia, it is said, used to look forward to Asia whenever she met with rebuff or defeat in Europe, or vice versa. To Egypt, the Asian- African dichotomy is no matter a geopolitical tactic, but a millennial element deeply engrained in its historical and cultural structure. The allegations that Egypt did not seriously take an African drive in its foreign policy in the last few years except only after it had met with troubles in the Arab East, especially the cession of Syria from the United Arab Republic, is plainly inaccurate.

Chapter VI

Some geographical analogies

Concentrating on the Asian and African dimensions, it would be misleading to depict their mutual interaction whether past or contemporary in the same way the two continental dimensions of Czarist Russia were sometimes patronal. True, of course, certain analogies of more than incidental character occur between Egypt and Russia. Each is the 'eldest sister' in a vast ethnic- natinal sphere, the arab world and slavdom respectively. Each has been subjected to the opposed pressures of Westernization and local endemism. Each developed for itself a modern outlet as a window on the West, and that, in both cases, at the hands of an absolute autocrat.

our sphere of maritime activity, leaving the remainder for the land sphere.

Proceeding now to the interplay of contintal dimension, we find that Egypt's relations with the Arab world are somhow greater along the longitudinal axis (Syria- Sudan) than along the transversal (Arabia- Maghreb). Moreover, Egypt's influence was more of a positive nature on the former, while on the latter she was to some extent rather on the receiving end.

the Turks did their share to emphasise the trend. Continental orientation has gained the upper hand over the maritime, and the transversal axis has prevailed over the longitudinal.

Finally, to correlate both our land and sea dimensions into one integrated framework, we have only to draw a circle with the centre on Egypt and the circumference tangential to the confines of Greece, the Aegean, Asia Minor, Armenia and the Euphrates. Encompassing Syria, Western Arabia, North Sudan and Cyrenaica, this would roughly delimit the broad core area of Egypt's historical orientation. An inner circle within and tangential in the north would take in the eastern basin of the Mediterranean and would roughly delineate the nucleus of

in this case the Atlantic.

Now in Egypt equally three stages are discernible, only the latest being radically different. The initial was as much potamic, i. e., rivering as it was coastal. The second is not only parallel to its counterpart in Europe, but is per excellence the era of the closest and most intricate relations with the continent opposite, whether in ancient Classical, or medieval times. Subsequently, however, against the oceanic stages in Europe, we get the contnintal in Egypt. While the former took the plunge into the Athantic, Egypt threw in it lot with the Arabs in Asia, all the more so because the oceanic activities of Europe themselves eventually turned the Mediterranean for the Arab into a mer 'cul-de-sac'. Soon, too,

produce as wel as minerals (including cedar wood from Lebanon and copper from Cyprus) were made available from the north and more torrid and exotic plants from the south (e. g., myrrh and incense).

If such be the maritime dimensions of Egypt in general terms, a word may now be said of how they fitted in with the land dimensions. Comprison here with Europe will be useful. As it is known, geographical orientation in Europe passed through three historical stages, viz., the coastal, the thalassic and the oceanic. In the first navigation it was purely local in its infancy. The second is practically synonymous with the Mediterranean which pròvided the nursery and maritime school in which Europe graduated and from which it finally ventured out to the ocean,

could in a sense be dubbed an Egyptian sea. The fact that it appered on certain Greek maps, as the Eritrean sea is simply a misnomer; more lifting could be the Pharaonic Sea, as indeed it was called in Ibn Jubair, or the Sea of Suez as referred to by Ibn Khaldum, or finally the Sea of Kolzum, Clysma as was one time name named.

At any rate, the maritime field of Egypt, confined as it does to the two seas which describe together a wide angle, assumes an essentially linear axis. The linear pattern makes for its diversification in natural habitats and consequently in products, in such a way as to enable complementary exchange. Thus the Mediterranean is a temperate sea; the Red Sea tropical. So Mediterranean and cold- temperate

Egypt itself, the Mediterranean is very much like the extensive, rich and all- important Delta; whereas the Red Sea is reminisent of the slot- like, entrenched and exiguous valley in Upper Egypt. And Egypt falls at the pivotal fulcrum between the two seas, deriving therefrom its crucial importance, precisely as Cairo falls between the two entities of Egypt with all its ensuing adimension of Egypt's, the very issue is never raised concerning the Red Sea.

On the other hand, however, let us not forget that Egypt's role itself in the sense that certain other Mediterranean countries played a more prominent part than it did in that sea, whereas of all the Red Sea countries certainly none has enjoyed a greater position than Egypt. Indeed, it is the Red Sea that

sible. Egypt"s traditional maritime field has, of course, been confined to the Mediterranean and Red Sea.

Of the two, the main weight goes by and large to the former; its role in the life and destiny of Egypt is incomparably greater than the latter. Each, however, actually derives much of its value, significance and importance from the other without which it would loose most of its import and would be relegated to the status of a purely local inland sea. The Mediterranean, with its vast surface area, the ramifications of its basin, its central location and its historic density, could easily be likened to a main square, whereas the Red Sea long, narrow and relatively poor, is a mere by-road. Or, to give an analogy from

Chapter V

The Four Dimensions in Interaction

The question now is: how have the different dimensions of Egypt, especially the Asiatic and African, com to work in interaction? How has the personality of Egypt been coloured by the interplay of their respective forces? To begin with the maritime dimensions, which occupy a secondary place compared to the land dimensions, it will at the outset be noticed that the fact that fluvial Egypt is a mono- or uni- environmental land (i. e., has fundamentally and solely one type of natural region) lacking in economic diversity and especially minerals and wood resources, has since early prompted it to seek sea and overseas trade. Central location made this pos-

the Mediterranean' theory which overlooks the fact that the role of this sea in the 20^{th} century AD is very much different from that of the 20^{th} BC and would only put the clock back, there is ample room (and need) for closer and more systematic relations between Egypt and the Mediterranean world. Egypt lacks a planned policy for the deepening and strengthening of its ties with its Mediterranean neighbours, political, economic and cultural. It would do well to hammer out this policy as early as it can, not only because it is the fourth largest in population among its four constituent countries, But also because th sea is half Arab. A common Arab strategy is also necessary to meet the Israeli threats in the Mediterranean.

pines)in antiquity or the Crusades subsequently, not to mention the Vandal influences and later the 'Andalusi' most immigrations which the Maghreb received. From the human standpoint, as from the physical Egypt, we conclude, is the least Mediterranean of the Mediterranean lands.

If, to recapitulate, we are to mahe an overall assessment of the relative weight and positions of the Mediterranean in the balance of our regional values and space relations, we may best say that it is greater than that of the Baltic in the case of Russia and roughly similar to that of the Mediterranean in the case of France. This is no minor position, but is not the leading one either. Accordingly, and quite apart from the reversionist historicism of the 'unity of

and at the same time in a position to provide them with commodities they lack (such as cotton, rice, onions, etc.). Such, in effect, is an economic complementarity compensating for physical dissimilarity, able it a consequence thereof.

So much, then, for the physical side. Turning now to the human aspects, we equally find Egypt the least amongst the Mediterranean countries to receive ethnic influences and human drifts from the shores of that sea, especially the opposite shore. True, appreciable communities and bloods have infiltrated from the margins of the eastern bain of the sea as well as from the Barbary coast, yet they are hardly to compare with what the Syrian coast received from the 'people of the sea' (the Philip-

west of the Nile Delta, only a very narrow belt along the tip of Egypt can passably be considered Mediterranean or semi- Mediterranean. Indeed Egypt, alone in the Mediterranean, is the country that does not know the typical Mediterranean food-complex normally dominated by the wheat - olive oil - wine trio.

In short, it is Mediterranean by location, yet not by climate, or, let us say, the least Mediterranean of the Mediterranean. Thus, on the other hand, makes it the only country in the region which belongs to an essentially different type of production, tropical and semi-tropical.Clearly, this makes it exceptionally in need of the traditional products of the other fellow countries (such as nuts, dried fruits, olive oil, etc.)

yond which density abruptly and dramatically drops. Furthermore, the Mediterranean constitutes, as in the case of france, only one of many dimensions in the geography of the country. Just as France is a two-sea State, so is Egypt; and just as France has its huge land base outside the Mediterranean basin as well as its extensive interests and dimensions in Atlantic Western Europe and in Central Europe, so has Egypt in both Asia and Africa.

Thirdly and finally, it must be remembered that Egypt is the one Mediterranean country farthest from the opposite coast and from Europe in general. Climatically too, it is the only one bordering the sea without belonging to the Mediterranean type of climate. Although the olive, the typical hallmark of the Mediterranean climate, actually trines north and

than that of the sea.

Secondly, while most Mediterranean countries border the sea along an extenssive front (e.g., Maghreb and Syria), Egypt, more or less like France, touches upon it rather perpendicularly, so to speak. The Nile, like the Rhone, is tangential to the sea almost at a point, rether than along a line. Moreover, a considerable belt in the north of the Delta, the Berari belt, is mostly inhabited or very sparsely populated marshes and wastelands. This vacuum generally separated the bolk of the population from the sea and kept it out of touch with it In fact, as sample notices, Egypt in this respect is probably the only exception in the Mediterranean, a basin typically characterised by an extraordinary concentration of population along its immediate coastal lands be-

three peninsulas of Europe or, for that matter, Syria and the Maghreb.

Behind these limitations and restrictions lie, it would seem, geography and natural conditions.In the first place, the Mediterranean is rimmed all around with a lofty montainous ring cutting the strangled coastal plain from the interior, rendering it too narrow to support its population who are driven to the sea as true amphibious societies, frequently exporting men overseas. Now, Egypt alone is the exception. Here alone the continuos mountain rim disappears, giving place to the vast and amply rich flat land of the Nile Delta. Hence no push factors driving the population to the sea exist, indeed the pull factors on the land reign supreme and unchallenged. The call of the river has always been far more potent

tural relations per force cross the Mediterranean today, the share of its countries thereof is rather limited. It is a well-known fact in inter na tional trade that, in view of the sameness of productions throughout the Mediterranean, the reciprocal trade relations between the bordering countries are rather poorly developed.

Generally speaking, our Mediterranean dimension can be summarily described as being more cultural than physical, enconomic than human and more limited to the eastern basin than to the western. However vital, it is emphatically of a lesser order than our Asiatic dimension. Indeed, it is not going too far to state that the place of the Mediterranean in Egypt's life is less than it is in most other countries of the sea - compare for isntance the

our geographical orientation. It is Egypt's window on the north as well as on the rhythm-keeper of her material and cultural pulse. Yet it is clearly a discontinuous orientation, subject to many ups and downs. Further, Egypt's part in it seems more on the receiving end, although the reverse was true of the older times. Besides, the Mediterranean role in the very being of Egypt has probably varied and dwindles through time in a progressive manner; the role of the sea at large has itself shrunken with the expansion of the world especially since the Atlantic became the new Mediterranean. As to the very considerably serious connections we now see with contemporary Europe via the Mediterranean, these only make of it a station 'en route' rather than an ultimate terminal. For, although the bulk of our external trade and cul-

tains to this day the imprint of this Levantine associations especially represented in its manufacturingactivities in furniture, Syrian confectionery, etc. Mohammed Ali inherited this situation, but in his rash westward first reverted to Rosetta. His need, however, however, for a real window on Europe - much like his counterpart in Russia, Peter the Great - drove him to re-create Alexandria, exactly as the latter created St. Petersburg. Despite the historic mutations of moderm Alexandria and her supreme place in our modern foreign trade and relations, the air age has come slightly to restrict the role of the sea and her relative weight, shifting the exclusive dominance to inland Cairo.

We are noe in a position to assess the whole situation. The Mediterranean is a vital dimension in

as its throbbing heart. This was owing to the fact that its location, on the front of contact between the Egyptian hinterland and the metropolitan foreland, was eminently suited to the purposes of sea-power colonisation.

This, however, left it from the point of view of the hinterlerland itself something like a foreign city, an exotic island from the Aegean Archipelago, moved and attached to the Egyptian coastline- witnesses the significant rubric 'Alexandria and Aegyptium'.

In the Middle Ages and the era of Italian cities connections, Rosetta led the leading route value. With the shift to the eastern basin, Damietta and Tinnis later usurped ascendancy. The former still re-

reemphasise the Mediterranean dimension, in the external outlook of Egypt, although it would be nearer the truth to say it realised a universal outlook for Egypt, with the Mediterranean being only an integral part thereof.

Such in essence are the tidal ebb and flow waves in our Mediterranean dimension. It is readily obvious that the geogrraphical compass of Egypt fruitfully reflected the pulse of the sea snd its basin; all their vicissitudes and oscillations being reverberated ad echoed locally. This was most evidently felt in the capital cities and the leading coastal parts, whose destinies and magnitudes were dictated or controlled by those oscillations. Thus in the Hellenistic period Alexandria was created from nothing quickly to dominate the Classical world and function

tacts were frequent and intense with the capital of Islaam (Islambul = Istanbul), the coastland of the Balkans in Greece and Albania, etc. Numerous emigrants and refugees from these rather poorly endowed countries, the Orniauds, Mohammed Ali's Albanian troops, etc., are cases in point. Once again, to this day we find evidence of their original extraction in their personal names which often derive from place or names.

Still moving down the centuries, we find our association with the eastern basin of the Mediterranean continuing actively under Mohammed Ali, but with the gathering momentum of Westernization and Europeanization was added the western basin, notably France and Italy, gradually almost to the exclusion of the former. The Suez Canal came at last to

in line with Egypt and the Red Sea along the same axis. In fact, they formed together a link in what came to be known as the 'economic backbone of medieval Europe'. Similarly, our intensive contacts with the Levant (Syria in particular) took place by sea rather than by land (the Via Mare). Even the Crusader's menace approached us by sea, thus emphasisng our Mediterranean dimension, though militarily.

Although the Ottoman period witnessed the serious migration of transit trade, our Mediterranean orientation did not entirely cease; only did the focus shift from the 'waist' of the sea to itseastern basin, i.e., the Levant. As a matter of fact, the Ottomans connected us with the Levant and Anatolia more closely than we are normally apt to imagine. Con-

the sea', while later the Greeks used to divide Egypt in two: Mediterranean Egypt, the Valley.

In Islamic times, the Mediterranean assumed a really prominent and axial dimension in the life of Egypt as both entities constituted inevitable stepping-stones along the world transit trade route. Egypt was intimately associated with the sea, but most notably its central 'waist', Alexandria, Damietta together with Venice, Genoa, Pisa, Salerno and Amalfi being like correlated cities at a distance. Cairo and Alexandria constantly had, especially under the Mamelukes, a resident active colony of merchants from the Italian city-states.

These intimate bonds only go to remind of the fact, pointed out above, that Italy and the Adriatic fall

The fact, then, is that the relations within the Mediterranean are an historical outgrowth which passed through successive evolutionary stages, all intimataly associated with the strategic space-relationships in the Old World. Thus in early antiquity the effective compass of the world, the arbres terrarum, scarcely exceeded the Ancient East and the Mediterranean basin, Europe north of the Alps and Africa south of the Sahara being either foggy fastnesses and barbarians or unknown wilderness and primitives. Quite logically, the Mediterranean polarised the then effective world, including Egypt. Hence our commercial and cultural tise with Minoan Crete, Classical Greece and Rome, the Levant and Cyprus, etc. Early in Phaaraonic history, the Egyptian coast experienced the attacks of the 'people of

er Arab countries bordering the Mediterranean, towards Europe in a way that could subordinate them to her political or at least cultural hegemony.

Now it is true that 'Europe begins at the Sahara', but it is equally true that 'at the Pyrenees begins Africa'. In other words, the theory can also make of Southern Europe an appendix of Africa, and not vice versa. If the Sahara is a barrier, so too cas be the Alps. And if the European shore of the Mediterranean admittedly prevailed or transgressed over the African, the reverse obtained for many countries. And finally, in any case, the theory of the unity of the Mediterranean cannot divert Northern Africa of its African nature and character any more than it can separate Southern Europe from the Northern continent.

vival of an old, one-time prevalent, but now more or less obsolescent, theory in the West. We refer of course, to the theory of the 'unity of the Mediterranean sea' in Classical antiquity which Greek then Roman colonisation presumably put into effect. Having conquered and dominated the Southern littoral of the sea from end to end, they linked the two shores into one unified, closed system, politically as well as culturally. However, that may be, it must be remarked that such was an imposed unity, forced only by coercion and unilaterally, and therefore cannot be a free test of a natural emergent. The theory, too, would almost cut Africa north of the Sahara from the rest of the continent. Some also feel that it could lend ready justifications to ulterior political designs such as orienting the area, whether Egypt or the oth-

link in it, probably less affects the destiny of the Mediterranean than it is affected by it. Taking all this in consideration, we may sum up by saying that the Mediterranean is certainly one axial dimension in Egypt's life, but not necessarily the most vital one.

On the other hand, other theories seem less plausible. Some authorities, including certain leading contemporary Egyptian intellectuals, would make us (or have us believe to be) part of a culture and a world they visualize, the so-called Mediterranean world. Egypt should, they urge, look to the sea and 'give it back to the desert' as they put it. To them it is no longer of avail to look, as we did in the past, to the sand in the age of water, the ocean age. It would seem, however, that this claim is merely a re-

ranean which if it does not fill, someone else will do.

Now, there can be no doubt that much in this view is in general basically sound and is substantiated by solid facts. We are afraid, however, that it probably over-rates the relative share of Egypt in the life of the Mediterranean as well as that of the latter in the life of Egypt itself (it is difficult, for instance, to consider the Mediterranean an 'Alexandrian' sea, etc.). To be sure, the reciprocal relations between the country and this sea are old-standing and far-reaching, yet there are countries i the Mediterranean basin that have played in a more prominent part and normally spend more of their energies inte its waters. Moreover, Egypt, though the most crucial

did Egypt so much harm as its neglect for the sea and its front. That was one of its biggest historic mistakes. All the weak points and sad sides of our medieval history, the decline, disintegrations and decadence of the Moslem world and last but not least our fall in the hands of modern imperialism, all were due to the fact we shunned the Mediterranean and gave up our role in it, giving all our attention eastward to Asia. One single areal dimension, has is to say, completely absorbed us to the exclusion of the other dimensions, thereby resulting in the loss of the advantages of our commanding geographical locations. Our historical balance was upset and thereupon came the great downfall. The obvious lesson is that Egypt has a vacuum in the Mediter-

what it granted none else, and equally benefited from it as it benefited from none else, his apogee phases are her's, and these are the Ptolemaic times in particular.

2) The history of Egypt has always been influenced by the Mediterranean, and that even in the phases of isolation such as the Ottoman. Egypt is not only the key to the affluence of the Middle East, but also to that of the whole Mediterranean basin; anarchy and unrest in Egypt affect all its countries; so, too, it happens whenever she relinquishes or neglects its place in the sea.

3) The life of Egypt is in good order only when it is connected with the Mediterranean; the sea element is a vital one ion its very existence. Nothing

mension. The pivot of the theory is that the Mediterranean 'is the most essential element in the history of this country' and it is buttressed with three 'données', here set forth as far as possible in their author's own phraseology.

1) The History of Egypt is nearly the history of the Mediterranean. Stability and prosperity in Egypt mean an active shriving Mediterranean. The history of Alexandria, the lung of Egypt, summaaries and sums up the whole history of the Mediterranean. prior to her, it hardly existed as a unified whole, and it did not emerge in unity and unison ànd attain full maturity except only after it had appeared. The Mediterranean, in short, is an Alexandrian sea at bottom and heart. It gave it

lead straightaway to Egypt, while the Italian peninsula, the Adriatic, the Greek peninsula and the Aegean, all striking from North West to South East, assume almost the same axis of the Nile valley almost extend along one and the same axis. Besides, navigation from the head of the Adriatic, if continued in the same direction, almost directly leads to Egypt, In the result, the Mediterranean seems to be an invisible link in a chain extending athwart its shores.

No doubt then, the Mediterranean is a sensible as well as a sensitive dimension in the life of Egypt. The essential questions however, it to what extent, and how does it fit into the scheme of our life? Hussein Moeniss is probably the best known authority to formulate a whole theory on our Mediterranean di-

Indeed it could be claimed, if ever seas could be said to 'debouch' at all, that the Mediterranean, especially its eastern basin, debouches precisely into Egypt. Let us glance at the map (see Figure No. 3). The Mediterranean ultimately terminates at Egypt, although it is the farthest Mediterranean unit from Europe. Any use of the sea as a crossing to the Orient must necessarily polarise unto Egypt (and to a less extent unto Syria). Without the key position of Egypt (and relatively of Syria) traffic therein would be merely or nearly local, and it would turn from a world sea into a regional sea at best. Consider, then, the shape of the eastern basin in particular; it will readily be seen that all its fingers point to Egypt. The direct, transverse line from the 'waist' of he sea near Sicily, as well as the Levant near Alexandretta,

Chapter IV

The Mediterranean Dimension

That the Mediterranean forms one essential dimension in the external orientation of Egypt, is a truism that can hardly be questioned. Facing it, as it does, along an extensive frontage, the country cannot fail to interact and co-exist with it. Infact it constitutes one side of the territorial square that is political Egypt; indeed the sole 'living' side since it alone is in direct contact with the Egyptian ecumene whereas the other sides are more or less 'dead'-lines. This is to say that the desert, encompassing Egypt (as it does Syria and Anatolia), has oriented it towards the Mediterranean and eventually connected it with Europe beyond as much as it tied it to Africa behind.

to some extent: active in the north, passive or merely receptive in the south. This, however, goes only for the human side. Physically, it is one of the most vital importance since it represents the hydrological basis of the very Egyptian existence, a fact which gives it such an exceptional political significance.

relations substantially less that of Sudan's respective ratio. The pull of Egypt, in other terms, is relatively stronger. This partly explains the preponderance of the Nilotic longitudinal axis ovis over the transversal one of the savanna in the whole structure-existence of Sudan. It likewise accounts for the fact that the gravitational pull of Egypt on the Sudaan far outweighs that of the Arabian Peninsula opposite, whether that be in the past of at present.

To sum up, the salient characteristics of the Nilotic dimenson in the fabric of life of Egypt, we may say that it is a primary one, hardly broken throughout history, indeed it gained in intensity through history. On the other hand, it is essentially of a cultural and political nature, and, from this angle, unilateral

and Sudan were the two regions most closely associated with Egypt throughout history, whether politically, militarily or culturally, etc. Nor is it mere accident that both are the only countries which entereed into same sort of political union with Egypt in modern times. Once more, therefore, we may say that Egypt and Sudan among the Arab countries are, like Egypt and Syria, turns among sisters (see Figure No.2).

The relative weights of the reciprocal relations between the two twin-sisters, however, are not and cannot of course be, equal. The massive size of Egypt both geographically and historically, culturally and economically, makes the ratio of its relations and dealings with Sudan relative to its total foreign

outlet in lieu of its natural orientations towards Nilotic Egypt.

It is difficult to discuss the Nilotic dimension of Egypt without especially stressing the place of Sudan therein. Owing to the two factors of geographic contiguity and the vital hydrological unity, it has always been one of the countries most closely associated with Egypt. This is much the same as in the case of Syria where the bond of strategic unity replaces that of hydrology. In consequence, there is between Egypt and Sudan, as between Egypt and Syria, a 'special relationship' in one sense or another.

Both relationships are age-long and antedate Arabism which only added more cement to them. This is clearly reflected in the fact that both Syria

ever, had hardly begun when it stumbled over a new 'sudd', now of a political not a physical nature - British colonialism - and was for ever checked. Significantly, 'Arab' Sudan ends precisely in the vicinity of Bahr Al- 'Arab'. Forced to retreat to its original core area, the Egyptian empire, which had turned geopolitically into a 'mixed' type of state, returned as it started an 'intensive', nuclear state. On the other side, the British domination in the Sudsn, in its bid to truncate the Nilotic dimension of Egypt, attempted to overturn the natural and historical gradient of the basin away from Egypt. Hence its schemes to sewer the Southern Sudan from its mother-country, link it up closely with East Africa and orient it to the Indian Ocean. Similarly, northern Sudan itself was designed forcibly to look forward to the Red Sea for

it explode by leaps and bounds through the depths of the Nile Basin and even right up to East Africa. Those were the days of the Egyptian-Arabian-Islamic empire of Mohammed Ali and his successors. This swift march early reached the Bahr Al-Arab/Bahr Al-Ghazal line only, however, to halt at Equatoria because of the Sudd impasse.

Paradoxically enough, the Nile, which ought logically to be a continuous avenue through the heart of the continent and the upper reaches of its basin, soon turns here, owing to the very reassons that made it such a colossal artery, into that impenetrable swampy barrier. The northern tide had therefore to outflank it in a major detour towards the Red Sea coast in Somalia and Eritrea. This swing, how-

rectly from the Arabia via the Red Sea preceded its Islamization across the Nile valley, it is certain that Egypt gave an energising push or fillip to the new tide and provided the most effective base for the Arabisation of the Sudan. Thus since the Arab conquest of Egypt, the march of Islam steadily made for Sudan, while the obstacle of Christian Nubia was soon engulfed and slowly but surely permeated by some sort of osmotic pressure before it was finally stormed by military invasion. The door was at last wide open.

It will be seen however, that the Arabisation of Sudan was not the role of Egypt alone. It must be said too, that the latter Nilotic dimension remained for long rather restricted. Only in the 19th century did

Abyssinia, however, represents the end - and climax - of the religious impulses from Egypt. It was wholly attached to the Alexandria Church, and there Coptic Christianity formed its last resort, thus finally becoming the largest Coptic island in Africa long after the creed had almost emigrated from its homeland and lagged a little on the way. Through this virtual migration, we can readily see once more that the past features and culture elements of the core of the Egyptian culture-area are now the features of its Nilotic margins.

With the advent of Islam, Egypt's role is once more emphasised. Although it is now scientifically established that the Arabisation of Sudan long preceded its Islamization, and that its Islamization di-

tion and creed south, also repeated the same role with Christianity and Islam. Although Christianity took over in Egypt a Egypt a special tinge peculiar to itself alone, so much so that Coptic is sometimes classified among the so-called 'ethnic religions' (i.e., restricted to a definite people and region), it didn't fail to range for a field along the Nil basin. It first spread among the Nubians of Beja, soon to take especially deep roots in the former where two Christian kingdoms arose, Dangola and Aloa. It is interesting that Christianity, long after it had been deserted in Egypt, adopted Nubia 'en route' as its new stronghold, so it long kept resisting the mounting tide of Islam until the two kingdoms fell in the 14th century. Likewise, Christianity survied for sometime among the Bejas.

and its language was influenced by ancient Egyptian and later by Coptic. Indeed, some surmise - this may be a mere guess - that Nubian is but some form of survial relics of ancient egyptian. The Middle Kingdom especially led extensive punitive campaigns unto Nubians and the people of the 'Wawat', while by the time of the New Kingdom the area had been thoroughly Egyptianised and the capital city of Napata founded near the 4th cataract. Egypt too, entered into constant contact with the Beja of the Red Sea Mountains and waged many battles against them and their neighbouring Blemmyes for pacification. The cultural consequences are evident in their borrowing inter alia of the cult of Isis from Egypt.

Egypt, just as it exported its pharaonic civiliza-

Egypt. Impulses from the core reach them rather slowly and belatedly, i.e., after a time - lag, yet there they survive long after they had much evolved or even been extinct in the core itself. To this extent, these penumbra-margins look like living geographical museums of an Egyptian history since long passed away.

As a rule, this cultural rayonnement from Egypt usually took place along a bundle of three axes, viz., the Nile axis to the backbone, the wadis (valleys) of the Eastern Desert and the caravan routes of the Western Desert. Pharaonic Egypt since early had close contacts with Nubia and is believed to have given it its name from gold - 'nib' - which attracted it there. From Egypt, too, Nubia borrowed civilizations

religious turn which, synonymous with myrrh, incense, etc., would set it at once on the path to Punt and Somalia. The southward orientation has prevailed. The fact that Thebes, the great metropolis which remained for long the political capital, was so peripherically situated in the far south, possibly helped emphasise the southerly orientation of Egypt.

The 'Drang nach Siiden', however, never ceased throughout ancient times and later. These southerly borders and confines seem to have been he land of the 'Nehes' of the ancient Egyptians and likewise the 'Merisse' region of Coptic Egypt. They all historically look like the margins and peripheries of a culture-area the centre or nucleus of which is

Huzayyin postulates a shrewd hypothesis as to the mechanism whereby the Nilotic orientation of Egypt dated either as occasionally a substitute for, or as complementary to the southward Asiatic dimension. He suggests that the climatic oscillations which the Middle and Near East experienced down to classical times, and which need not necessarily be of considerable magnitude, normally set the area into unrest, chaos and human turmoil, eventually driving out the bedouin nomads to raids and razzias, thus paralysing trade between Egypt and Western Asia on one hand and prompting them to invade Egypt particularly North Egypt, on the other. At this juncture, egyptian power would normally withdraw south to its traditional stronghold in Upper Egypt, especially around Thebes, where it would assume a

its famous but wasteful S-shaped bend, proceeded more directly to the north, Egypt's ties with the continent would have probably been more intimate. In all cases, however, the desert remains a serious barrier in the face of the Nilotic dimension of Egypt restricting it in range and in depth whether southward or westward. The Nile cataracts, which some authorities consider to be the racial filter and/ or the most northerly limit of the negroes and negritic influences in the river basin, place yet another serious obstacle across the sole artery to the heart of the continent. The limits of Egyptian political influence usually did not exceed or overstep the 2nd or 3rd cataract (very occasionally the 4th), although the cultural influences penetrated further away into ancient Ethiopia.

pact and condensed as Lower Egypt, the overall territory of Egypt would have certainly been much reduced. Furthermore, linear Upper Egypt imparted Egypt with a far-reaching cultural depth in Africa; it is an agile, though tenuos, arrow sent towards the heart of the continent carrying further its civilization and culture. As far as mechanically possible, it eludes or obviates the stubborn almost impassable obstacle of the desert. Had Upper Egypt been compact in shape, the history of Egypt's relations with the continent would have radically changed and it would have in one form or another given it back to the mother continert, becoming more Asiatic that it actually is.

On the other hand, had the Nubian Nile, with

km-long slot of Upper Egypt whose area is approximately 12,00 km^2.

Now it must be emphasised that such a form is generally 'uneconomical' from the point of view of settlement, communications, production of services, etc., because in all these these activities we have to deal with the minimum unit of populations against the maximum unit of distance. Clearly economic-geographic pattern of the country is not the ideal for the economic geographer. Yet for the very same reason it is most ideal for the strategist and for the purposes of history and culture. To be sure, it is linear Upper Egypt (the Said) that precisly extended the overall area of Egypt by adding to it the major part ot her desert territory. Had Upper Egypt been a com-

Chapter III

The Nilotic Dimension

From the outset, the peculiar linear patterns of the Nile valley in Egypt cannot escape notice. Despite the near-square shape of political Egypt, ecumenical Egypt (i.e., habitable Egypt, 'l'Egypte utile') is exceptionally and strikingly unlinear, an elongated body that has length rather than breadth. This is typically the Chile-type of morphology, and also reminds of the Algerian Tell. From north to south, Egypt is some 1 2000 km long, but the total area of the ecumena is only 35,00 km^2. A circle with only a 200 km-radius would suffice to encompass the whole of cultivable Egypt, while another circle with a 125 km-radius can similarly take in the nearly 1 000

In other words, the two 'unities' are of a different order and level, and it is a difference in kind not in degree, hence they do not clash or oppose one another. And Egypt, without sacrificing any other Arab associations in least may legitimately look towards Africa and develop its natural dimension there, as indeed it always did, neither ignoring its position as the guardian of the northern gateway of the continent and the fulcrum of the Afro-Asian solidarity front, nor at the same time forgetting the fact that Africa is the vast hinterland behind it and one with which its future in world politics and strategy is closely linked.

edged weapon, cutting both sides, Arabism as well as Africanism.

The truth of the matter however is that the theory basically falsifies the issue or at least distorts the right Vision. For one thing, Arab or Egyptian influence never ceased to penetrate the Sahara from time immemorial. It is surely too much to talk of the desert as a sand as a sand ocean in the age of jet planes. For another thing, the African unity is merely one of concerted action, of solidarity in the international field in order better to come with common foreign pressures. The Arab unity is one of existence and destiny, i.e. one of political amalgamation. The former does not seel a constitutional merger, the latter is essentially bent on complete unification.

is now playing the leading role in the liberation movement in the continent just as it did in the civiliz-ing stage of yore - from the mother continent, onr-mally claim that the Sahara is a major obstacle, as affecting as an ocean, dividing the continent in two. Thus they underline the basis dichotomy of the Arabs and the Negroes. This rules out any African unity.

The theory, which looks much like the other side of the much older theory of the 'unity of the Mediterranean sea', can only end in creating a clear-out antagonism between the idea of Arab unity and that of African unity. The two, it would follw, are opposed; to accept the one you have to split the oth-er. As such, the theory emerges as a doubled-

of its counterpart along the savanna belt on the other side of the Sahara. Even a current from Andalusia and Spain joined this Maghreb drift during the Reconquista. Andalusian Moslems poured into Egypt either as alarmists or as refugees. In the 8^{th} century A.D. for example, 15 000 families immigrated in Alexandria.

Such, in outline are the salient features of Egypt's dimension in Africa. It is clear that in most parts it coincides roughly with the limits of the Arab World or the Arab realm. Hence rises the question as to exactly how and where Egypt falls between Arabism and Africanism. Exactly what is the connection between Arab unity and African unity? Those who wish to isolate the Arabs-especially Egypt who

the ties came with Fatimid conquest of Egypt which lasted some two centuries.

Pilgrimage, however, best sums up the historical relations along this axis. The 'Maghrebi procession' annually gathered some 50 000 pilgrims, it is estimated. This 'pilgrimage route' is to this day symbolised by the scores of tombs and shrines of Maghrebi Sheikhs and Marabous strung all along our North-West coast beginning from Sidi Barrani, Mersa Matruh to the heart of the Delta. This pilgrimage route was actually a line both of movement and settlement. Many Maghrebis finally settled along it in Egypt, especially in Cairo, where they had always a quarter of their own, the Magharba quarter. The whole seems like an Arabian. Mediterranean copy

said that it is easier for Welsher to meet at Paddington rather than anywhere in Wales!).

In the last few decades, the Italian invasion and the concomitant dispersal of the Cyrenaicans brought many into Egypt for political asylum or for settlement. Besides, the Awlad Ali, the semi-nomadic tribes of Marmaraica Maryut, the North-West littoral of Egypt, represent an ethnic link with the Maghreb for they are originally of Libyan descent.

Egypt has been the gateway to the Arabisation of the Maghreb. Medieval relations never ceased with Jeziret Al-Maghreb and Shinkit (Mauritania). All along the coastal route, a system of warning messages by huge fires made for secrity. The climax of

On the other hand, the limits of the Egyptian empire or state more often than not included Cyrenaica and sometimes extended to Tripolitania, especially under the Ptolemies and Arabs. The Romans ordinarily considered the former as parts of the province of Egypt.

In the days of the Crusades and the Mongol threats of Asia, Egypt's interest in Libya was waring, but her cultural imprint was none the less felt, and Cyrenaica looked to Egypt as the vast centre of life and the natural emporium (In view of the disoriented, marginal patterns off settlement around the Jeble Akhdar, it would seem that it was sometimes easier for her tribes to meet at the terminal of the coastal route in Alexandria or Cairo rather than anywhere else! - much the same as is now facetiously

Along the axis of North Africa, Egypt's foreign relations are different and overlap with the Arab background. Both the Maghreb and the Nile Basin stand out like two huge arms ending both at Egypt through which they are appended to the Ring Felix of the Arab East. From the very outset, Egypt entered into far-reaching and close relations with Libyans (variously called by them the Tehenu, Tamehu, Meshuwesh, Lebu or Rebu, etc.). As nomads, their pillaging raids on the rich cornlands of Egypt never ceased; the counter-campaigns never ceased too. Numerous Libyans infiltrated and settled for good, and are known to have become wholly Egyptianised. This is particularly true of the western front of the Delta, the Fayyum and ports of Middle Egypt. At least one dynasty (the 22^{nd}) was of Libyan origin.

well-known case of the Nilotics of the Upper Nile.

There are many medieval records of fairly close ties between Egypt and the Western Sudan and West Africa all along the savanna - Sahel corridor. Of the 'pilgrims route' making for Mecca, a substantial drift annually made for Cairo, the Seat of Al-Azhar. Students, traders and dignitaries from the Sudan regularly visited Egypt and some settled down, like the toncolors leaving their traces till now in certain places or names in the country.

Both Ibn Khaldun and Ibn Battuta made frequent reference to these movements. Many European discoverer too, later expressed surprise to find the name and prestige of Egypt wherever they went in West Africa.

the great African Fertile Crescent in the north, while south extends another crescent all along the borders of the tropical 'Sahel' and savanna belt. The Sudan and Mauritania close or round up the circuit from east and west around the dead heart of the Sahara itself which is traversed only through the lines of oaks in its heart.

We can now follow up Egypt impinging on Africa against this geographical framework. To begin with, the early maritime expeditions to punt along the Red Sea axis are typical. Some historiansextend punt to mean South Arabia and East Africa beside the African Horn. Other cultural reverberations extended along the Sahara axis where traces of Egyptian influences were found among certain tribes of Nigeria, West Africa, not to mention the

other than Egypt to challenge the unfair indictment - it is simply the 'mother of history', so called, in a continent 'sans histoire', so described.

The cultural influences of Egypt on Africa, however, differ and change in depth, density and in kind from a region to another. Natural obstacles and geographical distance confine the effective range to the northern half of the continent, beyond which the effects dwindle and die out. Within the northern half, its spread and impact are canalised along certain paths governed by the physical make-up.

The ecumene around the Sahara almost repeats, though on a much vaster scale, the pattern of the Ring Felix we found around the Desert of Arabia. Thus the Nile and the Maghreb make up together

which was the cradle of civilization and its vanguard in the continent, has always exported much of her cultural elements to it. Geographical and historical conditions made her the leading torch in the dark continent. If any single country has ever led its continent throughout history without a break or a contest, that country Egypt in Africa. It is, more than any other country in the world, the eternal leader of her continent. If, again, any country culturally gave and influenced its continent most before the advent of Europe, that country is easily Egypt. Much of the civilization of Africa was partly derived from Egypt, and most of the Islam of the continent passed through it. On the other hand, the continent, which some rate as culturally the last of the continents before Antarctica (!), finds none among her daughters

migrated north and that Egypt thus derived from Abyssinia not only physically (soil and water), but also humaanly (flesh and blood). This, however, is rather a sort of mythical folklore which deforms some nebulous and ambiguous part. Alternatively, it may remind us of the old traditions of the Ancient Egyptian themselves who named the land of punt the 'land of the ancestors'.

Nowadays it is fashionable, perhaps as a sharp reaction to imperialist attempts to dismember the continent to search for the origins of the relationships between Africans in the fields of archaeology of early man. To base modern orientation on the evidence of theories or pre-history or even pre-homo sapiens, very tenuous and debatable, is a dangerous path. And it would suffice here to say that Egypt,

Chapter II

The African Dimension

It is all too evident that Egypt derives her soil and water from African sources; her body is manifestly part of Africa's. If, as we have seen owing to her marginal or peripheral position in the continent, Egypt is the most Asiatic of Africa. She is nevertheless not necessarily the least African. As for the people, the prevailing theories connect them with the African Horn in origin and find a more or less close tie between the Ancient Egyptians and the Somalis. The cradle of the Hamites is generally supposed to be within the Horn, and to these both people belong some ancient Ethiopians used to consider the ancient Egyptians as originally their descendants, only

Asian side. The Palestine issue has crystallised this tendency just as the Crusades did in the Middle-Age. Since the Palestine War (1948) and the Revolution (1952), the armies of Egypt have fought their main battles on Asian soil, including the Yemen.

Clearly enough, then, the Asian dimension is the axial one in the external orientation of Egypt. It is essentially a relationship of give and take from both sides, continuous and knows no breaks. It is quite wrong to claim, as did some, that 'no good ever came to us from Asia', the allusion being to the devastating menace of the Mongols, Turks, etc. Such a view is partial and scientifically unfounded.

ly Palestine) is nerarer to Egypt than it is to any other part of thereof. If Syria and Iraq can in one sense be considered as twins amongst the Arab sisters, Syria and Egypt should make together another couplet of twins. This intensity of relationship comes to its zenith in Palestine in particular, where Egyptian impact ad influence are indeed most felt. The Palestinians are probably among the nearest Arabs in dialect, way of life and in skin colour to the Egyptians. Indeed, it is one of the very rare cases where Egyptians are known to have immigrated and where Egyptian blood has infiltrated (the personal name 'Egyptian' is relatively widespread there).

At Present, these can be no denying that the centre of gravity of the national policy of Egypt, her Arabist or Arab nationalism activities, lies on the

Today, the emergence of oil has come to intensify this interaction through busieness transactions, tourism, educational interests, etc.

the fact remains, however, that in the final analysis, some 'sbecial relationship' exists between Egypt and Syria. Syria is probably the one regional unit has been in the profoundest relation and contact with Egypt throughout most history, or, let us say, if we consider the 'mean of history'. Besides geographical continuity and closeness, ther has been the all-important strategic unity between the two countries. The Syrian Desert, it will be observed, separates Palestine from Iraq consideraderably. Therefore, while North Iraq and North Syria are much closer one another than they are to any other part of the Arab World, Southern Syria (i.e. especial-

coastal strip which automatically leads to and links up with Syria. The trend to Arabia, on the contrary, is a sharp change in direction of a lengthy detour. Besides, the physical contact in environment between Egypt (fluvial) and Syria (Mediterranean) makes for basic differences in production and hence for wide potentiality of economic exchange. Arabia, poor desert and hardly productive, has little to trade with. In any case, the historical relationship between Egypt of the Fertile Crescent (the northern half of the Ring Felix) outweighed those with the southern crescent of that Ring.

The advent of Islam, however, redressed the balance to some extent and raised the pulse of interaction between Egypt and the Peninsula through religion, language and immigrations.

estine and Syria.

It is interesting to know that all these new arrivals still reflect their regional origins and foreign extraction in their personal names which are frequently derived from place-names. Such names generally refer to the area of junction between Syria and Anatolia and Caucasia, or West Asia in short.

At this juncture, certain regional differences within our Asian dimension make themselves manifest. In general, our ties with the northern sector were in a measure stronger than those with the southern, especially in ancient times before Islam. The fact is that Egypt, linked to both Syria and Arabia via Sinai, finds her way to the former more direct or easy because the main track in Sinai is the

dawn of history in the assured Semitic element in the (otherwise Hamitic) ancient Egyptian language, was emphasized. With the advent of Islam Egypt took over the Arab personality in full. Ever since she has been the focus and cultural hub of the Arab World, the major bastion of Islam and Islamism as well as the land-bridge between Arab Asia and Arab Africa.

Since Islam, it is noticeable that most ethnic strains that infiltrated into Egypt, whether individual or collective, came from the Asian side and flanks. Thus apart from the Arabs, there came Kurds, Turkomans, Ghuzz, Daylam (all as mamelukes of the Ayybids and Mamelukes); Turks later, and with them the Circasiasians (and Chechens) in the last century Armenians but notably Syrians from Lebanon, Pal-

er separated from the Ring Felix, whether before or after Islam. She has, significantly, been party to the three chapters in the story of monotheism. The cradles of the three religions, in Palestine, Sinai and Hyzar, describe together a triangle or an arrow, the angle of which touches upon Egypt in Sinai. The three creeds too, successively came to Egypt, like religious layers, although each subsequent layer submerged and displaced the previous one, until Islam became the dominant stratum. Egypt too played some role inthe events of all three religions: thus it was a base and a 'point d'appui' to Moses, an asylum to Jesus and a blood-tie to Mohammed (who married Mary, the Coptic gift).

The paramount importance of the Asian dimension in Egyptian life, which is reflected even from the

Asian front. Most outward movements from Egypt and most of her battles took place on Asian soil. The traditional frame or zone of Egyptian influence usually reached the foothills of Anatolia, the upper Euphrates on the one side of the skirts of Arabia paetra on the other.

This 'Drang nach Osten', however, expanded greatly in the 19th century so as to include Anatolia right, up to Istanbul or nearly, and likewise penetrated into Arabia to the Persian Gulf of the Yemen (Mehemet Ali).

Throughout most phases of history, the province of Egypt included most of the Syrian dependencies as well as the western coast of Arabia (Hijaz of Yemen).

From the purely religious point, Egypt was nev-

It should be added that the Sinai route is far more important than the Kosseir route, which was only complementary. Only one military campaign is known to have used it, dispatches from India against Napoleon. Yet it was important to transit trade, especially that the northern sector of the Red Sea is difficult for navigation (coral reefs, plus violent local cyclones and winds).

The Sinai way, too, was unsafe in phases of foreign dangers in Syris such as during the Crusades when East-West trade had to swing from North to South via Upper Egypt and the distant Red Sea. The same was true of the pilgrimage way from Maghreb.

Apart from relative weights, the two routes channelled most of Egypt's foreign activities into the

sal and complete only where it came by land, i.e., in Egypt and Sudan. It was essentially via and through Egypt, too, that the Arabisation of Sudan took place. It is easy to see how different the whole history of ancient and modern Egypt would have been had the Red Sea extended fully to reach the Mediterranean without a break.

In the result, the North-East is the main axis of Egypt's external. It is more to them than the Khayber Pass is to India or Thermopylae is to Greece. Through it poured in all the invasions of human drifts that history records, the exceptions being very few and limited to the west (such as the Libyans of Pharaonic times, of the Fatimid Berbers, and subsequently), or to the South (such as the Nubians or Ethiopians).

theme of the 'King Felix'. This is the richer or habitable part of it surrounding the desert - the 'Dead Hearth' of Arabia - and spread all along the coasts of the Arab Sea, Iraq, Syria. Here, Egypt comes to complete the circle via the links of Sinai and Qina-Kosseir. The whole is a complete circuit, through which all the major current of history and life in the area were canalised. Egypt is therein an important pole. She stands on the threshold of Africa, and looks upon the window of Asia. All this emphasizes the Asian dimension in Egyptian existence past and present.

The value of the land connection in this orientation is made clearer if we think how Islam and Arabisation are very local, mainly coastal and partial all along Eastern Africa, whereas it becomes univer-

Sea' as appeared on 19^{th} century maps.

5) The Qina-Kosseir corridor between the Qina Band and the Red Sea is another pointer to Asia. This route (only 100 miles) is the 'waist' of the Eastern Desert. The Ancient Egyptians called it the 'Route of the Gods' on the assumption that their ancestors came there. It is of secondary importance in our Asian orientation relative to Sinai, which may be dubbed the 'Route of Kings', having been so incessantly crossed by armies and invasions.

The sum total effect of these geographical controls and determinants is that Egypt entered into the closest contacts with W. Asia, even before the inception of the Arab World. In fact, the Arab East can be reduced from the ecumenical point of view to the

kened sometimes to the Arabian peninsula in miniature, has always raised the question: African or Asian? Anyway, it is the trait-d'union and a good conductor between the two continents. It is also the link between Egypt and the Arab. East, just as Egypt is, the link between the Arab East and West. physiographically it carries elements and features from: Syria, Arabia, and the Red Sea Mountains. Ethnically, you'll find representative in Sinai of all the tribes of the three mentioed areas.

4) Besides Sinai and much like it, the Red Sea is as much Asian as it is African. Even the Eastern basin of Mediterranean is Afro-Asian besides being European. It is interesting that that part of it to the south of Crete is locally known as the 'African

ongated yet very attenuated, with a length rather than a width, the Egyptian ecumene is like a lotus flower, a goblet or a palm tree. Suffice it that the Delta is twice an area as Upper Egypt (the Valley) and likewise contains 2/3 the population of the economic production of Egypt. In short, the natural momentum of Egypt and its centre of gravity is in the north. Besides, the north has been throughout history the centre of world power, politics and civilizations, influences and potential dangers, etc.

3) The Delta is wide open sidewise, leads automatically to Sinai, which carries in her northern strip (the 'Jeffar' of the Arabs (= sand dunes) a natural bridge-route to Asia. Hence Sinai is the eastern gateway of Egypt and its master key. Sinai, li-

northward, and most porticularly north-eastward. The question is simply: why?

1) A glance at the map (see Figure No. 1) reveals that the Nile does not flow in Egypt at the middle of the desert, but is clearly bastward, say roughly at a ratio of 1/3:2/3. The uninhabited and uninhabitable gap between the Nile valley in Egypt and the nearest neighbours in widest of the Libyan side and least on the Syrian side (nearly three times as large). Significance: Egypt's nearest neighbour is in Asia. Had the Nile's trend been different, Egypt's history would have been different.

2) Not only does the Nile flow northwards, but the Egyptian 'ecumene' (the habitable block land) grows richer and wider in that same direction. El-

Chapter I

The Asiatic Dimension

Of the two continental dimensions, the maximum weight goes always and from the beginning to the Asiatic which comes earlier, whereas the African lays very much behind. Although in Africa by location, Egypt has always been in Asia by impact and history. As Fitzgerald says, in her foreign relations Egypt has been more Asian than African.

Even without disregarding the Asian influences and relations in East Africa up to Madagascar, it can safely be stated that Egypt is the most Asiatic part of Africa.

The whole (or main) historical momentum and geographical gravity of Egypt has bees primarily

Sudan and Syria respectively.

So we get four dimensions in all: the Asian and African on the continental level, the Nilotic and Mediterranean on the regional. Clearly, they partly overlap. They, too, mix up with the Arab cadre or framework which is not considersd here a dimension but rather the essential fabric of the Egyptian 'presence' of which will be treated later. The push and pull between those dimensions, their ebb and flow during the successive stages of history, are of paramount importance in shaping the outwork, character and learnig of Egypt.

lapsed and regressed during her ominous famines to something reminiscent of Negro-land with its barbarism, cannibalism, slavery of impotence. In other words, Egypt somehow oscillated between the civilization of her Mediterranean head and that of her Nilotic or African roots.

Again she is the link between the east (Al-Mashriq) and the west (Al-Maghrreb) of the Arab World, as well as the primary natural corridor between Asia and Africa. This means that Egypt has two fundamental dimensions, the Asian and the African, both of which contributed to the formation of her personality and coloured it to a certain extent The African side gave Us life, the two dimensions are represented in our political orientation by the two experiments in unification which took place with Su-

INTRODUCTION

THE FOUR DIMENSIONS OF EGYPT

By Virtue of her central position on the Old World at the the corner-stone of the Continental Triad, Egypt is necessarily poly-dimensional, i.e., her geographical orientation gives many dimensions and sides to her history, historical role and foreign relations. The aim and theme of-this study is simply to delineate and survey these areal dimensions and to account for them. in geographical terms.

Egypt is the connecting nexus between the Mediterranean World and the whole Nile Basin. Even from the strictly human and social point, the culture of Egypt which outdistanced and overshadowed that of medieval Europe,very ofty often re-

In his final findings, he came to the conclusion that, in spite of these different dimensions, the heart and essence of Egypt, remained always, first and foremost, Egyptian!

The Editor

A. Saleh Hamdan

Docteur d'Etat és Lettres et

Sciences Humaines

(Sorbonne)

Letter Of the editor

The Egyptian geographer, Gamal Hamdan, wrote this study in the early seventies and was intended to assist Western scholars and researchers in their works on Egypt's geo-political studies.

It was later included, with more details, in his famous encyclopedic work, issued in Arabic: 'The Personality of Egypt' [1].

In this study, Gamal Hamdan dealt with the four dimensions of Egypt: the Asiatic dimension, the African dimension, the Nilotic dimension and the Mediterranean dimension, After discussing the interaction between these four dimensions, he then gave some geographical analogies.

1- Gamal Hamdan, "The Personally of Egypt" in 4 Vols., Cairo, 1980-84.

TABLE OF CONTENTS

'The Personality Of Egypt'

Multiplicity Of dimensions and aspects

By

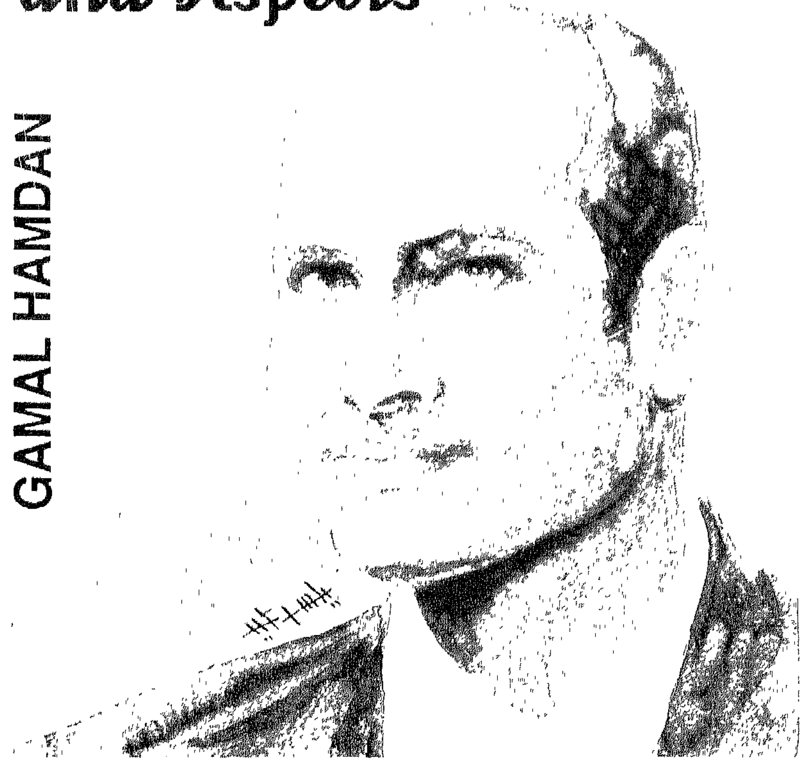
GAMAL HAMDAN

B.A (Hon.) Cairo University

Ph.D. Reading University

"The Personality of Egypt"

Multiplicity of Dimensions and Aspects



GAMAL HAMDAN

Madbouli Bookshop